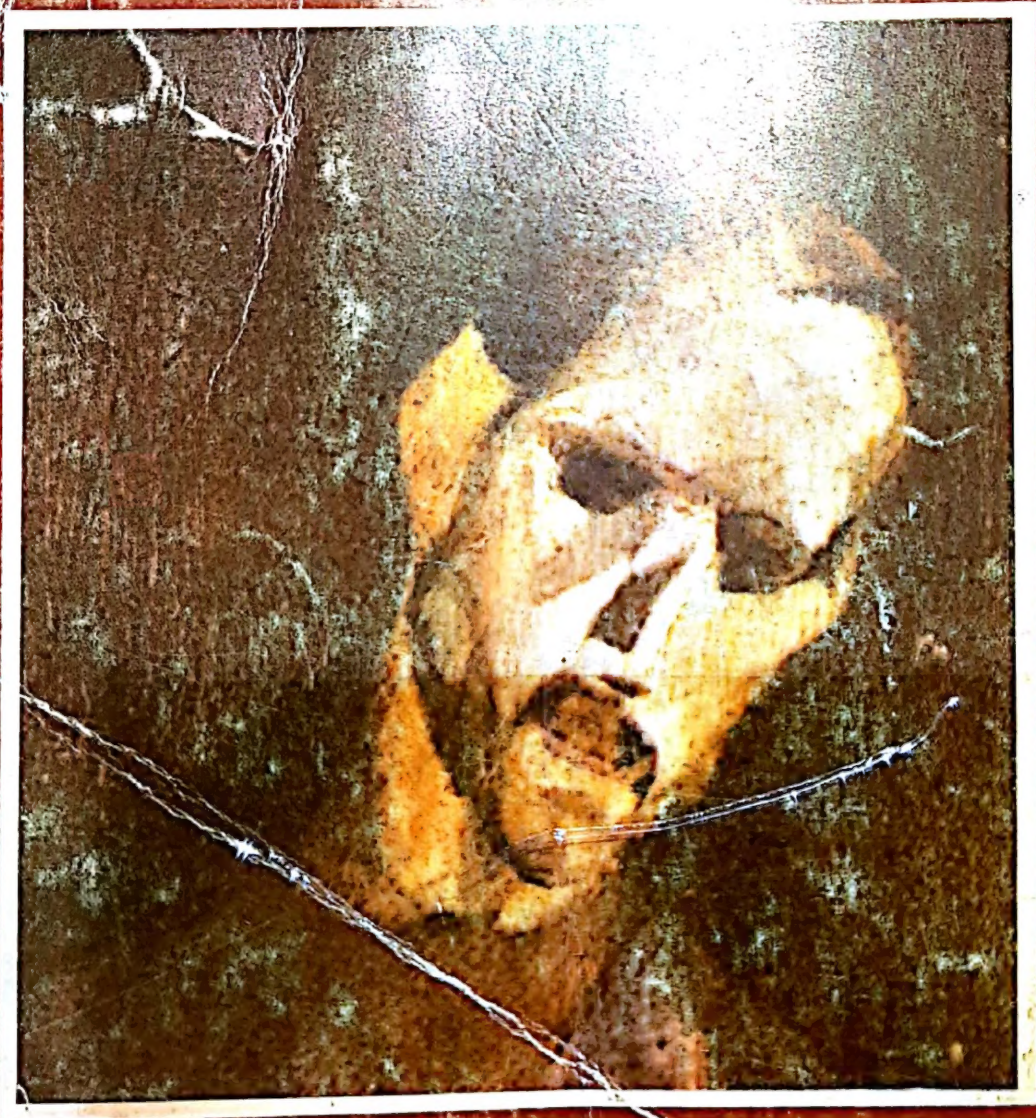


الكتاب

# الغريب

ترجمة المحامي سهيل أيوب

ألبير كامو



ن ش





الغريب





النبيير كامو

الفريسي  
منقطة

ترجمة  
الطحاوي سهريل الربوب



# جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلتَّرْجَمِ

— ١٩٨٠ —

---

صمى كغلاف : أ. ص. الفقيه



## القسم الأول

١

ماتت أمي اليوم . أو ربما البارحة . لا أعرف على وجه الدقة . تقول البرقية التي وردتني من المأوى : «توفيت أمك . الدفن غداً . أحرّ تعازينا» . وتركتني البرقية في حيرة من أمري . فقد تكون الوفاة وقعت البارحة .

يبعد مأوى العجزة في مارينغو خمسين ميلاً عن مدينة الجزائر . فإذا ركبْتُ باص الساعة الثانية أصل إليه قبل انتشار العتمة . فأقضي الليل هناك أقوم بالصلاة المعتادة إلى جانب الجثمان ، وأعود إلى هنا غداً مساء . وتدبرتُ أمري مع مخدمتي فأجازني يومين . لا ريب أنه لم يكن يستطيع أن يرفض ذلك في مثل هذه الظروف . وقد خطر لي أنه تضايق . فقلت له في غير وعي :

- أنا آسف ، يا سيدي ، ولكنك تعلم أنها ليست غلطتي .  
وتصوّرتُ فيما بعد أنه لم يكن ثمة حاجة إلى قَوْلَةٍ ذلك . فليس ثمة سبب يرغمني على الاعتذار . كان ينبغي أن يقدم لي تعازيه . لربما سيفعل ذلك ، بعد غد ، عندما يراني في ثياب الحداد السوداء . أما في هذه اللحظة فتبدو الأمور وكأن أمي لم تمت حقاً . ولسوف يُثبت الدفن ذلك ، وَيَسِمُهُ بِمِسْمٍ رسمي ، كما يقولون ...

ركبْتُ باص الساعة الثانية . النهار تتوقّد سماءه بُعَيْدَ الظهرية . تناولت طعامي ، على مألوف العادة ، في مطعم سيليست . كانوا ، جميعاً ، لطفاء معي .

قال لي سيليست :

- ليس هنالك من يماثل الأم حقاً .

رافقوني إلى الباب عندما ذهبت . كنت تائه الفكر قليلاً ، فقد كان عليّ في اللحظة الأخيرة أن أمرّ بمحل عمانويل لأستعير ربطة عنق سوداء وشريطة حزن . فقد سبق أن فقدَ عمه منذ شهور قليلة .

كان يجب أن أركض للحاق بالباص . وأعتقد أن هذه العجلة وما رافقها من انعكاسات الطريق والسماء ، ورائحة البنزين وهزهزة السيارة الكبيرة ، ذلك كله سبّب شعوري بالنعاس . نمتُ طوال الطريق على أية حال . وحينما استيقظتُ وجدتني أستاذ إلى أحد الجنود . كشر في وجهي وسألني ما إذا كنت قادماً من مكان بعيد ، فأومأت بالايجاب اختصاراً للحديث . لم أكن أشعر بميل إلى الثرثرة .

يبعد المأوى قرابة ميل عن القرية . فاجتزت الطريق على قدمي . وطلبت أن يُسمح لي برؤية أُمي على الفور . فأخبرني البواب أنه يجب أن أقابل المدير أولاً . ولما كان المدير مشغولاً فقد فُرضَ عليّ أن أنتظر قليلاً . وجعل البواب يسامرني خلال فترة انتظاري ، ثم صحبني إلى المكتب . كان المدير رجلاً قصيراً جداً ، أشيب الشعر ، يحمل في عروة سترته وسام الشرف . رنا إليّ طويلاً بعينيه الزرقاوين النديانتين . وتصافحنا ، فأمسك بيدي فترة مديدة في يده مما أربكني . وقلب بعد ذلك صفحات ملف على منضدته ، وقال :

- دخلت السيدة ميرسو المأوى منذ ثلاث سنوات . لم تكن لها موارد خاصة ، بل كانت تعتمد عليك كلياً .

خيّل لي أنه يعيب عليّ شيئاً ، فبدأت أشرح له الأمر . ولكنه قاطعني قائلاً :

- ليس عليك أن تبرّر نفسك ، يا ولدي . قرأت الملف ، ووضح لي أنك لم



تكن في وضع يسمح لك أن تعنى بها بصورة منتظمة . كانت في حاجة إلى شخص يلزمها طوال الوقت ، وأمثالك من الشبان لا يقبضون من أعمالهم رواتب ضخمة . وعلى أية حال ، فقد كانت أكثر سعادة هنا في المأوى . قلتُ :

- أجل ، يا سيدي . واثقُ أنا من ذلك .  
فأضاف :

- أنت تعلم أنه كان لها أصدقاء طيبون هنا ، أشخاص من عمرها . والمرء تهنأُ أموره بين أشخاص يماثلونه سنأ . أنت شاب ، ولا بد أنك لم تكن تستطيع أن تبقى إلى جانبها طويلاً .

كان ذلك صحيحاً . يوم كنا نعيش معاً كانت أُمي تتابعني بعينها على الدوام ، ولكننا لا نتحدث إلا في النَّدَرى . وما أكثر ما كانت تبكي في الأسابيع الأولى من دخولها المأوى . وكان ذلك بسببٍ من العادة وحدها . كان يمكن أن تبكي أيضاً لو طلبوا إليها بعد شهر أو شهرين أن تغادر المأوى . وكان يمكن أن تتألم أيضاً لهذا السبب ، وهو ما دعاني إلى عدم زيارتها ، خلال السنة الماضية بطولها ، إلا زورات متباعدات . كما أن الزيارة كانت تضيّع عليَّ يوم الأحد - هذا إذا لم نذكر الجهد في الذهاب إلى موقف الباص ، وقطع تذكرة الركوب ، وتمضية ساعتين كاملتين في طريق الذهاب وساعتين أخريين في طريق الأوبة . وتابع المدير حديثه ، ولكنني لم أكن أعيره أذناً صاغية . قال لي أخيراً :

- أفترض الآن أنك تحبُّ أن ترى أمك ؟

نهضت من غير أن أردَّ عليه ، فتقدمني إلى الباب . وشرح لي على السلم قائلاً :

- نقلنا الجثمان إلى مستودع الجثث الصغير - كيلا نزعج الشيوخ الآخرين . أنت تفهم ذلك . فكلما حدثت وفاة هنا يظل الآخرون ثائري الأعصاب فترة

يومين أو ثلاثة أيام ، وهذا يجعل الخدمة شاقة متعبة بالنسبة الى مستخدميها من دون ريب .

اجتزنا ساحة كان فيها جمعٌ من الشيوخ يثرثرون في حلقات صغيرة . جنحوا إلى الصمت ونحن نمرُّ بهم ، وما لبثت الأحاديث أن استؤنفت بعد ابتعادنا . ذكرّتي أصواتهم بأصوات بيبغاوات في قفص ، لكن النبرة لم تكن حادةً على أية حال .

توقف المدير عند مدخل مبنى صغير منخفض ، وقال لي :

- ههنا أتركك ، يا سيد ميرسو . إذا احتجت إليّ في أمر من الأمور فأنا في مكتبي . نقترح أن يكون الدفن غداً صباحاً . وهذا يتيح لك أن تقضي الليل قرب نعش والدتك ، الأمر الذي لا نَشْكُ أنك تريد أن تفعله . لقد علمتُ من صديقات أمك أنها تريد أن تُدفن بحسب الطقوس الكنسية ، فتدبرّت كل ما هو ضروري . ولكنني أردت أن أبلغك ذلك .

أجزيت له الشكر . ان أمي لم تفكر في الدين في حياتها قط ، على حد علمي ، رغم أنها لم تكن ملحدة .

دخلت مستودع الموتى . الغرفة مشرقة جداً ، نظيفة ، مطلية الجدران بلون أبيض ، ومسقوفة بالزجاج . وكان أثاثها عبارة عن عدد من المقاعد والمساند الخشبية . وكان ثمة مسندان في منتصف الغرفة وضع النعش فوقهما .. النعش مغطى ، لكن براغيه ليست مشدودة مما جعل رؤوسها اللماعة تبرز فوق الخشب ، وهو من شجر الجوز الأسود المصبوغ . وكان ثمة امرأة عربية ، أظن أنها ممرضة ، تجلس إلى جانب النعش ، تلبس قميصاً أزرق ، وتلف شعرها بمنديل مزخرف .

دخل البواب ورائي في تلك اللحظة . لا بدّ أنه كان يركض ، فهو مبهور الأنفاس قليلاً . قال :



- لقد وضعنا الغطاء ، لكنهم أمروني أن أرفعه عندما أتيت ليتاح لك رؤيتها .  
وفيا هو يقترب من النعش رجوته ألا يتعب نفسه ، فسأل :  
- ماذا ؟ ما هذا ؟ ألا تريدني أن ...؟

فأجبت :

- لا .

فأعاد مفك البراغي إلى جيبه ، وحدّق في وجهي . أيقنت عندها أنه لم يكن  
يجب أن أقول لا ، فارتبكت .  
سأل ، بعد أن رنا إلى فترة من وقت :  
- لماذا ؟

لم يكن في نبرته شيء من عتاب . إنه يريد أن يعرف لماذا بكل بساطة .  
أجبت :

- حسناً ، لست أدري حقاً .

شرع يفرك شاربه الأبيض ، ثم قال لي في لطف من دون أن ينظر إليّ :  
- لقد فهمت .

إنه جميل الطلعة ، عيناه زرقاوان ، وخداه متوردان . جرّ مقعداً إلى قرب  
النعش ، وجلس خلفي تماماً . نهضت الممرضة ، وتحركت صوب الباب . وفيما  
هي تمرّ بنا همس البواب في أذني :  
- إنها تشكو ورماً ، هذه المسكينة .

تطلعت إليها في شيء من التدقيق ، فرأيت أنها تلف رباطاً حول رأسها ،  
تحت عينيها مباشرة . كانت الربطة مسطّحة على جسر الأنف . ولم يكن يُرى  
في وجهها غير بياض تلك الربطة .

وما أن ذهبت حتى نهض البواب ، وأعلن :

- سأتركك الآن وحدك .

لا أدري ما إذا كنت أتيتُ حركة جعلته يقف خلف مقعدي بدلاً من أن يتابع طريقه .. يزعجني إحساسي بوجود إنسان خلف ظهري . كانت الشمس تنطفئ ، والغرفة تعجُّ بأخر شعاعات المساء الحلوة ، وزنبوران يطئنان في الأعلى عند الزجاج . وكنت أحسُّ أن النعاس يمتلكني فأعجز عن فتح عيني . سألت البواب من غير أن ألفت إليه عن الزمن الذي قضاه في المأوى . فردَّ عليَّ في الحال كمن ينتظر سؤالي منذ زمن طويل :

- خمس سنوات .

أطلق سؤالي عقال ثرثرته . لو أن أحدهم أخبره قبل عشر سنوات أنه سينهي أيام حياته بواباً في مأوى مارينغو لما صدَّقه . هو في الرابعة والستين من عمره ، وهو باريسى على ما أنهى إليَّ .

قاطعته مستوضحاً دون تفكير :

- آه ، أنتَ لستَ من هنا ؟

وتذكرت أنه حدثني عن أمي قبل أن يصحبني إلى المدير . قال لي إنه يجب أن ندفنها في أسرع وقت لأن الحرَّ شديد في هذه النواحي ، وخاصة في السهل . «في باريس يبقون الجسد ثلاثة أيام ، وأحياناً أربعة» . وأبلغني بعد ذلك أنه قضى أجمل سنوات حياته في باريس ، وأنه يجد صعوبة في نسيانها . وقال :

- أما هنا فليس لديهم وقت ، فهم لم يخلقوا لفكرة أنه يجب أن يركضوا خلف عربة الموتى .

قالت له زوجته :

- صمتاً ، فهذه أشياء لا يجدر أن تُردَّد على مسمعي السيد الشاب المسكين . فاحمأً الرجل العجوز وانهمر يعتذر . أخبرته أن لا بأس عليه . كنت أجد أن ما يقوله صحيح ومفيد ، فأنا لم أفكر فيه من قَبْلُ على الإطلاق .



وتابع حديثه فروى لي أنه دخل المأوى كنزيرٍ عادي . ولكنه كان يحس أنه سالمٌ معافي ، فعرض نفسه لشغل منصب البواب عندما شغل هذا المنصب . ألمحت أنه كان ، في نهاية الأمر ، نزيلاً عادياً كالآخرين . ولكنه رفض هذا التلميح . إنه أشبه «بمستخدم مسؤول» . وقد دهشتُ قبلاً للطريقة التي يقول فيها «هم الآخرون» ، ونادراً جداً «هم الشيوخ» ، وهو يتحدث عن النزلاء الذين لم يكن بعضهم يكبره سناً . أكيد أن الأمر لم يكن واحداً . كان هو بواباً ، وكانت له عليهم حقوق على شكلٍ من الأشكال .

دخلت الممرضة في تلك الأثناء . كان الليل قد هبط سريعاً ، وعلى حين فجأة ، والسما تزداد حلكة فوق زجاج السقف . ضغط البواب زر الكهرباء فبهرتني دفقات الضوء .

دعاني إلى غرفة الطعام لأصيب شيئاً من العشاء . ولكنني لم أكن جائعاً . - فعرض عليّ عندئذ أن يأتيني بفنجان من قهوة بالحليب . كنت أحب القهوة بالحليب كثيراً ، فقبلت شاكرًا . ورجع بعد فترة يحمل طبقاً . شربت القهوة ، فأخذتني رغبة في التدخين . وترددت ، لأنني لم أكن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك في حضرة والدتي . فكُرت في الأمر ملياً . لم يكن لهذا الأمر أية أهمية ، وهكذا قدمت لفافة للبواب وقعدنا ندخن .

شرع يحادثني من جديد :

- أنت تعرف أن أصدقاء والدتك سيأتون بعد قليل للقيام بمراسم الصلاة . إنها العادة هنا عندما يموت إنسان . يحسن بي أن أذهب وأحضر عدداً من المقاعد وإبريقاً من القهوة السوداء .

كان انعكاس النور على الجدران البيض يرهق عيني ، فسألته عما إذا كان في مقدوري إطفاء أحد المصابيح . قال لي إن ذلك ليس ممكناً . فقد كان تركيب الكهرباء مصنوعاً على هذا النمط ، فإما المصابيح كلها أو لا مصباح

على الإطلاق . ولم أعره كثيراً من انتباهي بعد ذلك . خرج ، ورجع يحمل عدداً من المقاعد صفها حول النعش . ووضع على أحدها إبريق القهوة وحوالي دزينة من الفناجين . ثم جلس قبالي ، من الجهة الأخرى من أمي . وكانت الممرضة في الطرف الآخر من الغرفة قد أدارت ظهرها لي . لم أكن أرى ما كانت تفعله . ولكنني خمنتُ من حركات ذراعيها أنها تشتغل بالصوف . كان الطقس لذيذاً ، والقهوة قد أدفأنتني ، ورائحة الورد وأنفاس هواء الليل الرطيب تتسلل من الباب المفتوح . وأعتقد أنني غفوت قليلاً .

أيقظني بعد ذلك حفيف غريب في أذني . أحسست بعد أن أغلقت عيني أن الضوء في الغرفة ازداد قوة عنه قبلاً . لم يكن ثمة أثر للظل في أي مكان ، وكل شيء ، كل زاوية أو انحناء ، يرتسم بصفاء جرح للنظر . إن الشيوخ أصدقاء أمي يدخلون إلى الغرفة . كانوا عشرة ، ينسلون في صمت في هذا النور الأبيض الذي يعمي . جلسوا من غير أن تصرّ كرسي واحدة . أبداً لم أر في حياتي من قبلُ شخصاً بوضوح مثلما رأيت هؤلاء الناس . لم يكن يفوتني أي تفصيل في وجوههم أو ملابسهم . ومع ذلك لم أكن أسمعهم . وكان يصعب أن أصدق واقع وجودهم . النساء جميعاً على وجه التقريب يرتدين المآزر ، والأحزمة التي تشدّ خصورهن تُبرزُ بطونهن المنتفخة . ولم أكن لحظت حتى الآن إلى أي حدّ يمكن أن تكون بطون للعجائز من النساء . وكان أغلب الرجال تقريباً نحيلين كالمدمّات يحملون العكازات جميعاً . والأمر الذي أدهشني في وجوههم هو أنني لم أكن أستطيع أن أرى عيونهم ، بل أرى بريقاً عاتماً فيما يشبه عشاءاً من التجاعيد .

تطلعوا إليّ حين جلسوا ، وهزوا رؤوسهم في خراقة ، ومصوا شفاههم بين لثتهم عديمة الأسنان . لم أستطع أن أعرف إذا كانوا يسلمون عليّ ويحاولون أن يقولوا شيئاً ، أو أن الأمر لا يعدو مجرد ارتعاش من جراء الشيخوخة . حاولت أن

أفكر أنهم يسلمون عليّ . وفي هذه اللحظة فقط أدركت أنهم يتملقون البواب جميعاً ، يحدقون فيّ في رزانة ، وهم يؤرجحون رؤوسهم من جانب إلى آخر . وراودني للحظات شعور مضحك أنهم جلسوا ههنا لإجراء محاكمتي .

أخذت إحدى النساء تبكي بعد فترة قصيرة . كانت تجلس في الصف الثاني . لم أكن أستطيع رؤية وجهها لأن إحدى صديقاتها جلست أمامها . كانت تبكي في صرخات قصيرة منتظمة فيخال للمرء أنها لن تتوقف أبداً . وكان يبدو على الآخرين أنهم لا يسمعونها . إنهم يجلسون في صمت ، يسترخون في مقاعدهم ، يحدقون في النعش أو في عكازاتهم أو أي شيء آخر أمامهم . ولم يكونوا يرفعون عيونهم عن هذه الأشياء . والمرأة لا تبرح تبكي ، وأنا شديد الدهشة لأنني لا أعرفها . وددت لو تتوقف عن البكاء ، غير أنني لم أجرؤ على مصارحتها بذلك . انحنى البواب نحوها بعد لحظات ، وهمس شيئاً في أذنها ، فهزّت رأسها ، وتمتت بعض كلمات لم أفهمها ، وواصلت بكاءها على الوتيرة ذاتها .

نهض البواب ، واقترب مني بمقعده . اعتصم بصمته فترة ، ثم قال من دون أن ينظر إليّ :

- كانت مغرمة جداً بوالدتك . وهي تقول إنها كانت صديقتها الوحيدة في الوجود ، وإنه لم يبق لها أحد الآن .

لم يكن لديّ ما أردُّ به . فخيم الصمتُ فترة طويلة . كانت تأوهات المرأة وشهقاتها تخفُّ . وكانت تنخر كثيراً . ثم صمتت .

لم أكن أشعر بالنعاس ، ولكن التعب يهدني . كانت ساقاي تؤلمانني كثيراً . وبدا لي الآن أن صمت جميع هؤلاء الناس يرهق أعصابي في تلك الأثناء . وكان الصوت الوحيد الذي أسمعُه صوتاً غريباً ، يأتييني في فترات متقطعة طويلة ، فأدهشني ذلك أول الأمر . وعلى أية حال ، فقد توصلت ، بعد



فترة طويلة من الإصغاء ، إلى أن أحزر ماهية ذلك الصوت : إن بعض الشيوخ  
يمصون باطن خدودهم ؛ ويصعدون هذه الأصوات الغريبة الصافرة . لم ينتبهوا  
إلى ذلك لاستغراقهم في أفكارهم . وكان عندي شعور أن هذا الجسد الميت  
المسجى في وسطهم لم يكن يعني شيئاً في نظرهم . ولكنني أعتقد الآن أن هذا  
الشعور لم يكن غير انطباع خاطيء .

شربنا جميعاً القهوة التي أدارها البواب علينا . ثم لم أعد أذكر شيئاً .  
وانقضى الليل على شكل ما . وإني لأستطيع أن أذكر لحظة واحدة ، فتحت  
خلاها عينيّ فرأيتُ الشيوخ ينامون متكّومين على مقاعدهم ، باستثناء عجوز  
واحد يسند ذقنه على يديه المتشبثتين بعصاه ويحدق في كمن ينتظر يقظتي .  
واستغرقتُ في النوم من جديد . واستيقظت بعد قليل لأن الألم في ساقي انتشر  
وغدا أشبه بالتشنج .

كان هنالك لمعان من الضوء على صفحة السماء . ولم تمرّ دقيقتان حتى  
استيقظ أحد الشيوخ وسعل مرات كثيرات . وبصق في منديل كبير مزخرف  
بمربعات . وكلما بصق مرة تصوّرت أنه يكاد يتقيأ ، الأمر الذي أيقظ الآخرين  
فأخبرهم البواب أنه آن أوان ذهابهم . نهضوا جميعاً على الفور . كانت وجوههم  
أشبه بالرماد بعد هذه السهرة الطويلة المتعبة . صافحوني جميعاً مما أثار  
دهشتي ، فكان هذه الليلة التي أمضيها سوية دون أن نتبادل فيها كلمة واحدة  
خلقت فيما بيننا نوعاً من ألفة ومودة .

كنت منهك القوى . فأخذني البواب إلى غرفته حيث هندمت نفسي . وقدم  
لي قدحاً من قهوة بيضاء خيل إليّ أنها أنعشتني قليلاً . وعندما خرجت كانت  
الشمس قد نهضت ، والسماء مليئة بالبقع الحمر فوق التلال القائمة بين مارينغو  
ومنبسط البحر . وكان نسيم صباحي يهبُ مشبعاً برائحة ملحية حلوة . لم أكن  
ذهبت إلى القرية منذ زمن طويل ، فألفيت نفسي أفكر في روعة النزهة التي

كان يمكن أن أقوم بها لو لم تكن هنالك قضية أمي .

انتظرت في الساحة تحت شجرة دلب . كنت أتنشق روائح الأرض الباردة فشعرت أنني لم أعد أحسّ بالنعاس قط . ثم فكرت بزملائي الآخرين في المكتب . لا ريبة أنهم يستيقظون في هذه الساعة ويتأهبون للانطلاق إلى العمل . أما بالنسبة إليّ فكانت هذه الساعة أسوأ ساعات النهار . وجعلت أفكر على هذا الغرار حوالي عشر دقائق ، ثم لفت انتباهي صوت جرس يرن في قلب البناء . كنت أرى حركات خلف النوافذ ، ومن بعدُ هدأ كل شيء . نهضت الشمس قليلاً في السماء وشرعت تدفئ قدمي . واجتاز البواب الساحة وأخبرني أن المدير يريد رؤيتي . ذهبت إلى مكتبه حيث جعلني أوقع بعض المستندات . رأيت أنه يرتدي السواد مع بنطال مخطط . حمل سماعة الهاتف ، وتطلع إليّ ، قال :

- وصل رجال الحانوتي منذ لحظات ، وسيذهبون إلى مستودع الجثث لإغلاق النعش . هل أطلب إليهم التريث قليلاً كي تلقي نظرة أخيرة على أمك ؟  
قلت :  
- لا .

فتحدث في الهاتف في صوت خفيض :

- انتهى الأمر ، يا فيجاك . قل للرجال أن يذهبوا إلى هناك .

أخبرني أنه سيشارك في مراسم الدفن ، فشكرته . جلس وراء مكتبه ، وصالب ساقيه القصيرتين ، واستند بظهره إلى المقعد . وقال لي إتنا ، هو وأنا ، سنشارك في هذه المراسم بالإضافة إلى المعرضة القائمة على العمل . إن نظام المأوى لا يسمح للنزلاء بالمشاركة في هذه المراسم ، رغم أنه لم يكن ثمة اعتراض على السماح لعدد منهم بالجلوس إلى جانب الجثمان في الليلة السابقة . أوضح لي الأمور قائلاً :

- ذلك في سبيل مصلحتهم ، وحرصاً على مشاعرهم . ولكنني سمعت بصورة خاصة لصديق قديم لوالدتك بالحضور معنا . وهو يدعى توماس بيريز . وابتسم المدير ، واستتلى :

- إنها قصة صغيرة مؤثرة . فهو وأمك لم يكونا يفترقان في أغلب الأوقات . كان الآخرون يغيظون بيريز بتسميته «الخطيب» . ويروحون يسألونه على الدوام : «متى تتزوجها؟» . فإردّ عليهم بابتسامة . فيسرّهم ذلك حقاً . وهكذا يمكنك أن تخمّن مبلغ شعوره بالأسى لوفاة أمك . خطر لي أنني لا أستطيع أن أرفض السماح له بالمشاركة في الدفن . ولكنني منعت ، نزولاً عند نصيحة طبيينا ، من السهر إلى جانب الجثمان ليلة البارحة . جلسنا صامتين فترة من الوقت . ونهض المدير ، وخطا صوب النافذة . قال :

- آه . لقد جاء الكاهن من مارينغو . وصل مبكراً قليلاً . حذرنى أن الطريق ستستغرق منا ثلاثة أرباع الساعة سيراً على القدمين للوصول إلى الكنيسة القائمة في القرية . ثم هبطنا السلم . كان الكاهن ينتظرنا عند باب المستودع يصحبه مساعدان من الجوقة يحمل أحدهما مبخرة . وكان الكاهن ينحني فوق هذا الأخير يعدّل طول السلسلة الفضية التي تحمل المبخرة . وما أن وقع بصره علينا حتى قومّ عوده وتمتم بضع كلمات ، وناداني «يا ولدي» . ثم دخل إلى المستودع .

لحظت من فوري أن أربعة رجال يقفون خلف النعش ، وأن براغي الغطاء استوت في أماكنها . وسمعت في اللحظة ذاتها المدير يقول إن العربة وصلت ، فشرع الكاهن يرثم صلواته . ومن بعد تحرك الجميع . واقترب الرجال الأربعة من النعش وهم يحملون شريطة من قماش أسود ، بينا اتخذت الكاهن وصبياه أماكننا . وكان ثمة سيدة لم أرها من قبل تنتصب عند الباب . التفت المدير

إليها قائلاً :

- هذا هو السيد ميرسو .

لم أستوعب اسمها ، ولكنني فهمت أنها ممرضة ملحقه بالمأوى . عندما قدموني لها أحتت ظهرها ، دون أن يرتسم على وجهها الطويل النحيل أي ظل لابتسام . تنحينا عند الباب لمرور النعش ، ثم تبعنا الرجال الأربعة الذين يحملونه على طول الرواق ، ووصلنا إلى المدخل الرئيسي حيث تنتظر العربة . كانت العربة مستطيلة ، لماعة ، مدهونة بلون أسود ، فذكرتني بحاملة الأقلام الموضوعة على المكتب .

إلى جانب العربة يقف رجل قصير يرتدي زياً غريباً مهمته ، على ما عرفت ، تنظيم مراسم الدفن . وغير بعيد عنه وقف السيد بيريز ، صديق أمي الحميم ، مرتبكاً خجلان . كان يلبس قبعة طرية من اللباد ذات حافة عريضة رفعها لدى مرور النعش ، وبنطالاً يشدُّ على خذائيه ، وربطة عنق سوداء صغيرة أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى ياقة قميصه البيضاء العالية . وكانت شفثاه ترتجفان تحت أنفه المنتفخ المزروع بالبثور . إن ما لفت انتباهي أول شيء هو أذناه . كانتا متهدلتين قرمزيتين أشبه بفقاعتين من الشمع المذاب على شحوب وجهه ، توطرهما خصلات شعره الحريري الأبيض .

عُيِّنَ لنا مستخدم الحانوتي أمكنتنا ، على أن يتقدَّم الكاهن العربة ، وكل واحد من الرجال الأربعة في إحدى زواياها . ثم المدير وأنا ، ومن بعدُ ، في المؤخرة ، العجوز بيريز والمرضة .

السما كتلة ملتهبة من الضياء ، والهواء يزداد حرارة . وأحسست أولى موجات القيظ تلفح ظهري ، وثيابي السوداء تجعل الأمور أكثر سوءاً . ولم أستطع أن أفهم فيمَ انتظرنا فترة طويلة من وقت قبل أن نبدأ المسير . رفع العجوز بيريز قبعته عن رأسه بعد أن كان لبسها . التفت ناحيته قليلاً . كنت أرنو إليه



عندما روى لي المدير تفاصيل جديدة عنه . أذكر أنه قال إن العجوز بيريز وأمي اعتادا القيام بنزهة طويلة معاً في برودة الأمسيات ، وما أكثر ما كانا يصلان حتى القرية في رفقة الممرضة .

تطلعت إلى الريف من حولي ، إلى صفوف شجر السرو الطويلة المتجهة صوب خط السماء والتلال ، والتربة الحارة الحمراء المرقشة بالخضرة المفعمة حيوية ، وهنا وهناك يتبدى منزل وحيد في وجه الضوء - وكنت أستطيع أن أفهم أحاسيس أُمي . لا ريبة أن العشيات في هذه الأرجاء أشبه ببهجة مكتئبة . والآونة ، في هذا التوهج الطاغي الذي تبعثه شمس الصباح ، وكل شيء يومض في الضباب الحروري ، فإن ثمة شيئاً لا إنسانياً ، يشبط الهمة ، في هذا المشهد كله .

تحركنا أخيراً . فلحظت عندها أن بيريز يعرج قليلاً . وبدأ العجوز القصير يتباطأ في سيره فيما العربة تسرع في انطلاقها على الأرض . وتمهل أحد الرجال الذين يسرون إلى جانب العربة أيضاً وراح يمشي إلى جانبي . أدهشتني السرعة التي راحت الشمس فيها تتسلق قبة السماء ، وتبين لي عندها أن الهواء كان ، طوال فترة مديدة ، ينبض بطنين الحشرات وخشخشة العشب الذي تسري الحرارة في عروقه . وراح العرق يتدحرج على وجهي . ولما لم أكن ألبس قبعة فقد شرعت أروّح بمنديلي .

استدار مستخدم الجانوتي صوبي وغمغم كلمات لم أفهم معناها . وشرع يمسخ في الوقت ذاته قمة رأسه بمنديل يحمله في يده اليسرى ، بينما رفع بيده اليمنى قبعته . سألته ماذا قال ، فأشار بيده إلى السماء ، وقال :

- الشمس سيئة جداً هذا النهار ، أليس كذلك ؟

قلت :

- نعم .

سألني بعد فترة قصيرة :

- أنحن ندفن أمك ؟

قلت ، مرة أخرى :

- نعم .

- ما هو عمرها ؟

- حسناً . كانت عجوزاً .

لم أكن أعرف عمرها على وجه الدقة .

ولجأ إلى الصمت .

تطلعت إلى الورااء فرأيت بيريز يعرج على بعد خمسين ياردة منا . كان يؤرجح قبعته المصنوعة من اللباد على مدى ذراعه ، ويحاول اللحاق بنا . ألقى نظرة أخرى على المدير . كان يمشي في خطوات موزونة بعناية ، وهو يدرس كل خطوة ، وقطرات من العرق تتلألأ على جبهته فلا يمسخها .. خطر لي أن موكبنا الصغير يتقدم بسرعة أكثر من ذي قبل . وأينا ألقى بصري صافحت عيني مشاهد الريف السابحة في موج من شعاعات الشمس ، فيما السماء تلتهب فلا أستطيع رفع بصري إليها . اجتزنا طريقاً فرشت بالزفت حديثاً ، تلعب شعاعات الحرارة فوقها وتنغرس الأقدام فيها لدى كل خطوة مخلقة آثاراً لماعة سوداء . وفي المقدمة ، كانت قبعة السائق السوداء البراقة تبدو أشبه بكتلة من تلك المادة اللزجة ألصقت فوق العربة . كان ذلك الوهج الأبيض المزرق فوقنا والسود المحدث بنا يمنحان المرء شعوراً غريباً يشبه الحلم . وكذلك كان لون العربة الأسود ، وسواد ثياب الرجال الأربعة المعتم ، وتلك الآثار الفضية السوداء التي تتركها أقدامنا على أرض الطريق . وكانت هنالك تلك الروائح ، روائح الجلد الحار وروث حصان العربة ، تختلط برائحة دخان البخور . هذه الروائح جميعاً ، بالاضافة إلى الآثار المتخلقة عن أرق

الليلة الماضية ، جعلت عيني تغيمان .  
التفتُ إلى الورا مرة أخرى . بدا لي بيريز بعيداً جداً ، ضائعاً وسط ضباب  
من الحر . ثم اختفى عن نظري على حين بغتة . فتشتُ عنه برهة ، وخطر لي  
أنه ربما انعطف عن الطريق إلى الحقول . ثم لحظتُ أن ثمة انعطافاً في الطريق  
إلى الأمام منا . لا ريب أن بيريز ، الذي يعرف المقاطعة جيداً ، اتخذ درباً  
مختصرة للحاق بنا . وما أسرع أن لحق بنا بعد المنعطف ، ثم أضعته من  
جديد . لقد اتخذ درباً مختصرة أخرى ، ولحق بنا . حدث هذا مراراً خلال  
نصف ساعة من الزمن . وما أسرع أن فقدت اهتمامي بحركاته . كان صدغاي  
ينبضان ، وكنت أجز نفسي مرغماً .

انتهت الاجراءات بعد ذلك في سرعة وبشكل لم أعد أذكر معه شيئاً من  
التفصيلات . ولكنني أذكر أننا عندما غدونا في ضاحية القرية قالت المريضة لي  
شيئاً . شذهني صوتها ، فهو لا ينسجم وملاحها على الاطلاق . كان موسيقياً  
وعلى شيء من الارتعاش . قالت لي :

- إذا مشى المرء على مهلة أصيب بضربة شمس . وإذا أسرع في خطواته  
يعرق ، والهواء البارد في الكنيسة يرعشه .

كنت من رأيها . فكلا الأمرين صحيحان .

علقت بذهني بعض الذكريات الأخرى عن مراسم الدفن . وجه ذلك  
الصبي العجوز ، مثلاً ، عندما لحق بنا للمرة الأخيرة عند حدود القرية وعيناه  
تسحان العبرات ، عبرات التأثر أو التعب ، أو كلاهما معاً فتمنعها تجاعيد وجهه  
عن الانحدار . كانت تنتشر ، وتتصالب ، وتشكّل نوعاً من الطلاء على وجهه  
العجوز المرهق .

وأستطيع أن أتذكر طلعة الكنيسة ، والقرويين في الشارع ، والغرنوقيات  
الحمر على الأضرحة ، وإغماء بيريز - هذا الذي تغضن مثل دمية من

الخروق ، والتربة السمرء المصفرة المصبوغة بالحمرة التي تنهال على نعش  
أمي ، وقطع الجذور البيضاء المختلطة بها ، ثم الأناس الآخرين ، والأصوات ،  
وانتظار وصول الباص خارج المقهى ، وزجاجة المحرك ، وفرحتي الصغيرة عندما  
دخلت أول الشوارع البراقة المنارة في الجزائر ، وتصوّر نفسي أنطلق قدماً إلى  
سريري ، واستغراقي في النوم طوال اثنتي عشرة ساعة كاملة .

فهمت عندما استيقظت لماذا بدا مخدومي كالح الوجه عندما طلبت منه يَوْمِي عطلة . فالיום هو السبت . لم يخطر لي ذلك في بال من قبل قط . ولكن هذه الفكرة واتتني وأنا أنهض من فراشي . لا ريب أنه فكر أنني سأحصل على أربعة أيام من العطلة ، وينبغي أن يتوقع المرء منه ألا يحب ذلك . لم تكن تلك غلطتي إذا دفنوا أمي البارحة لا اليوم . ومهما يكن من أمر فقد كنت سأحصل على عطلة يَوْمِي السبت والأحد ، على أية حال . ولكن ذلك لم يمنعني من إدراك وجهة نظر مخدومي .

كان نهوضي من الفراش شاقاً ، فقد أنهكتني اختبارات يوم البارحة . رحت أتساءل ، وأنا أحلق ذقني ، كيف تراني أمضي الصباح . قررت أن السباحة سترد لي نشاطي . فركبت الترام للذهاب إلى المرفأ .

لم تتبدل الأمور على الإطلاق . كان ثمة عدد كبير من الشبان في بحيرة السباحة ، وماري كوردونا التي كانت ضاربة على الآلة الكاتبة في المكتب من قَبْلُ . كان توقي إليها شديداً في تلك الأيام ، وخيل إلي أنها تستلطفني هي الأخرى . ولكنها لم تَبْقَ بيننا غير فترة قصيرة من زمن لم يتحقق لنا خلالها شيء من ذلك .

وفيا أنا أساعدها في الصعود إلى الطوف تركت يدي تستقر على نهديها . ثم



استلقت على الطوف وأنا أسبح في الماء . استدارت بعد لحظة ورنّت إليّ . كان شعرها يغطي عينيها ، وكانت تضحك . تسلقت الطوف إلى جانبها . الهواء دافئ عذب فوضعت رأسي ، في شبه مزاح ، على حجرها فما أبدت تأففاً . فتركته يرتاح حيث كان . السماء بأسرها في عينيّ ، زرقاء مذهبة ، وأنا أحسّ معدة ماري ترتفع وتنخفض في لطف تحت رأسي . ولا ريبة أنا استلقينا حوالي نصف ساعة على الطوف نصف نائمين . وما أن اشتدت حرارة الشمس حتى ألقّت بنفسها في الماء فتبعتها . أمسكت بها ، ولففت ذراعي حول خصرها ، وسبحنا جنباً إلى جنب . وكانت لا تبرح تضحك .

وفيا نحن نجفف جسدنا على شاطئ البحيرة قالت لي :

- أنا أشدّ سمرة منك .

سألته إن كانت تودّ مرافقتي إلى السينما في تلك العشية . فضحكت مرة

أخرى ، وقالت :

- أجل .

وافقتُ على الذهاب إن أنا أخذتها إلى فيلم ساخر يتحدث الجميع عنه ،

ويمثل فيه فرنانديل .

حدقت في ربطة عنقي السوداء عندما ارتدينا ملابسنا ، وسألته إن كنت في

حال جداد . فأخبرتها أن أُمّي انتقلت إلى الدار الآخرة .

سألته :

- متى ؟

فأجبت :

- البارحة .

لم تقل شيئاً. لحظتُ أنها تراجعَت قليلاً . عزمَت على أن أشرح لها أنها ليست خطيئتي ، ولكنني تمالكَت نفسي عندما تذكرت أنني قلت ذلك

لمخدومي ، وتأكد لديّ أن ذلك التصريح سيكون أقرب إلى الحماقة . وسواء  
أكان ذلك دلالة على الحماقة أم لا - فالمرء لا يستطيع أن يمتنع عن الشعور بشيء  
من الذنب في مثل هذه الحالات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نسيت ماري كل شيء في المساء . كان الفيلم  
ساخراً في بعض مقاطعه ، ولكنه سخيّف من حيث الاجمال . وقد ضغطت  
ساقها على ساقي في صالة السينما ، وكنت ألاحظ نهديها . وقبلتها قبيل نهاية  
العرض ، لكنها كانت قبلة خرقاء . وعندما خرجنا رافقتني إلى شقتي .

كانت ماري قد ذهبت عندما أفقت من نومي . سبق أن أنبأتني أن خالتها  
تنتظرها في الصباح . وتذكرت أن اليوم هو الأحد ، وكان ذلك يُضجرني . فأنا  
لا أبالي بأيام الآحاد . أدت رأسي ورحت أشمّ في كسل رائحة مياه البحر التي  
خلفها رأس ماري على الوسادة . نمت حتى الساعة العاشرة . وبقيت مستلقياً  
في سريري حتى الظهيرة أدخن لفافة بعد أخرى . وقررت ألا أتناول طعام  
الغذاء عند سيلبيست كعادتي . لا رغبة أنهم سيمطرونني بالأسئلة ، وأنا أكره  
ذلك . قَلَوْتُ بيضاً ، والتهمته من المقلاة . فعلت ذلك من دون خبز لأنه لم  
يكن لديّ شيء منه ، ولم أكن أودّ أن أنزل لأبتاع شيئاً .

ضجرت قليلاً بعد الغذاء وتجوّلت في الشقة الصغيرة . كانت الشقة تناسبنا  
عندما كانت أُمّي تعيش معي ، ولكنني غدوت الآن وحيداً ، وصارت الشقة  
كبيرة عليّ ، فنقلت مائدة الطعام إلى غرفة نومي . فأنا لا أستعمل الآن غير  
هذه الغرفة التي حشرت فيها جميع الأثاث الذي أحتاج إليه : سرير نحاسي ،  
ومزينة ، وبعض مقاعد خيزران تجوّف أكثرها ، وخزانة ذات مرآة فَقَدَتْ  
بريقها . أما ما تبقى من الشقة فلم أكن أستعمله ، فأهملته .

التقطتُ بعد مدة ، كما أقوم بعمل ما ، صحيفة قديمة عن الأرض وشرعت  
أقرأها . كان ثمة إعلان عن أملاح كروشن قطعته وألصقته على ألبوم أجمع فيه

الأشياء التي تسليني من الصحف . ثم غسلت يديّ ، وخرجت إلى الشرفة .  
غرفة نومي تطلُّ على الشارع الرئيسي في ناحيتنا . ورغم أن الجو رائع بعيد  
الظهيرة كان بلاط الشارع أسود براقاً ، والناس القلائل الذين يمرون يبدون في  
عجلة من أمرهم . مرّت أول الأمر أسرة تقوم بنزهة نهار الأحد ؛ ثم صبيان  
صغيران يرتديان بزتين بحريتين وسروالين قصيرين يبلغان حتى ركبتيهما ، تلوح  
عليهما علائم الارتباك ؛ ومن بعد فتاة صغيرة عقدت شعرها بشريطة كبيرة  
زهراء اللون وانتعلت حذاء جلدياً لماعاً . وجاءت خلفهم أمهم ، وهي امرأة  
سمينة ضخمة الجثة ترتدي ثوباً حريراً بني اللون ، وتدرج الأب بعدهم ،  
وهو رجل قصير نحيل كنت أعرفه بالنظر فقط . كان يضع على رأسه قبعة من  
القش ، ويمسك عصا بيده ، ويلبس ربطة عنق على شكل فراشة . ولما رأيته  
إلى جانب زوجته فهمت لماذا يقول الناس إنه ينحدر من عائلة طيبة .  
بعيد ذلك مرّ جماعة من الشبان ، من أهل الضاحية ، بشعورهم اللامعة  
المصقولة ، وربطات عنقهم الحمراء ومعاطفهم المخصورة ، وجيوبهم المزخرفة ،  
وأحذيتهم العريضة . وخنّت أنهم في طريقهم إلى إحدى دور السينما الكبيرة في  
وسط المدينة مما جعلهم يبتكرون في الانطلاق ويسرعون خطواتهم صوب محطة  
الترام ، يضحكون ويلفطون بأعلى أصواتهم .  
شرعت الدرب تقفر تدريجياً بعد رحيلهم . لا بدّ أن الحفلات النهارية  
بدأت . ولم يبق في الطرقات غير بعض أصحاب الحوانيت والقطط . وكانت  
السماء صافية فوق أشجار الجميز التي تشكل حدود الطريق ، والنور لطيفاً .  
أخرج بائع التبغ على الجانب الآخر من الشارع كرسيّاً على الرصيف وضعه  
أمام باب دكانه ، وتراخى عليه وقد استند بذراعيه إلى ظهره . وهذه عربات  
الترام التي كانت تغصُّ قبل لحظات بالركاب فرغت الآن تماماً . وفي القهوة  
الصغيرة ، «شي بيرو» ، إلى جانب بائع التبغ ، كان النادل يكنس النشارة في

المطعم الفارغ . إنها بُعِيدَ ظهيرة يوم أحد نموذجية ...  
أدرت مقعدي وجلست جلسة بائع التبغ ، فقد وجدتُها أكثر راحة . وبعد أن  
أحرقَت لفافتين رجعت أدراجي إلى الغرفة ، وتناولت قطعة من الشوكولاتة .  
وعدت لالتهامها عند النافذة . وما أسرع أن تزركشت السماء بالسحب ،  
وحسبت أن عاصفة من عواصف الصيف ستهبُ . ولكنَّ الغيوم انقشعت  
تدريجياً بعد أن خَلَفَت في الشوارع نوعاً من تهديد بالمطر جعلها أشد ظلمة .  
وقعدت أراقب السماء فترة طويلة من الوقت .

عند الساعة الخامسة ارتفعت ضجةُ صاحبة لحافلات الترام . كانت تعود  
أدراجها من الملعب الكائن في الضاحية حيث جرت مباراة في كرة القدم . كانت  
سلامها الخلفية مزدحمة وقد تعلَّق الناس على درجاتها . وجاءت حافلة أخرى  
تحمل أفراد الفريق . عرفت ذلك من حقائبهم الصغيرة التي يحملون . كانوا  
ينشدون نشيد فريقهم الخاص : «إجعلوا الكرة تتدحرج ، أيها الفتيان» . وأسأَمَ  
أحدهم بصره إليَّ ، وصاح :

- لقد انتصرنا عليهم !

فلوحت له بيدي ، وقلت :

- عمل رائع !

وابتدأت من تلك اللحظة قوافل السيارات الخاصة تتدفق .  
تبدلت السماء من جديد ، وراح لمعان محمَّرُ ينتشر خلف رؤوس البيوت .  
وأخذت الطرقات تزدهم بالسابلة مع هبوط الغسق . كان الناس يرجعون من  
جولات نزهتهم ، ورأيت بينهم ذلك الرجل الرشيق وزوجه البدينة . وكان  
الأولاد يتذمرون ويتدحرجون في كسل وراء أهليهم . وأفرغت دور السينما المحلية  
بعد لحظات روّادها من المشاهدين . ولحظت أن الشبان الذين يخرجون منها  
يمشون بخطوات سريعة ويتحركون في رشاقة أكثر من رشاقة الأيام العادية . لا

ريبة أن الفيلم الذي شاهدوه يتحدث عن بعض مغامرات الغرب الأميركي الوحشية . وَقَدِمَ بعدهم أولئك الذين أموا دور السينما في وسط المدينة وهم يبدوون أكثر رزانة . وكان بعضهم يضحكون . وعلى أية حال ، فقد كانت تظهر عليهم ملامح الضنى والإنهاك . وظلّ عددٌ منهم يتجولون في الشارع تحت نافذتي . ثم جاءت باقة من الفتيان تماسكت أذرعهنّ . فانحرف الشبان تحت نافذتي للتحرش بهنّ ، وأطلقوا بعض النكات ، فأدارت الفتيات رؤوسهن وجعلن يضحكن . كنت أعرفهنّ ، فهنّ من الحي الذي أعيش فيه . ورفعت اثنتان أو ثلاث منهن رؤوسهن ، ولوحن لي بأيديهنّ .

في تلك اللحظة أضيت مصابيح الشارع فجأة ، فجعلت النجوم التي بدأت تتلألأ في سماء الليل أكثر شحوباً . وشعرت بعينيّ تزدادان تعباً من النظر إلى الاضواء وتلك الحركات التي أراقبها في الشارع . وكانت هنالك بحيرات من الضوء تحت المصابيح ، وحافلة ترام تمرّ بين حين وآخر ، فيلتمع شعر إحدى الفتيات ، أو ابتسامة ما ، أو سوار فضي .

وما أسرع أن شرع الشارع يقفر تدريجياً ، فيما حافلات الترام تتناقص والسماء تشتدّ اسوداداً فوق الشوارع والمصابيح ، إلى أن خلت الطرقات من كل إنسان ، وراح قط وحيد يجتاز الشارع المهجور في غير عجلة . خطر لي أن أفتش عن شيء آكله . كنت مستنداً إلى ظهر مقعدي من زمن طويل أرنو إلى الأسفل فالمتني رقبتي عندما وقفت . نزلت ، وابتعت قليلاً من الخبز والسباغيتي ، وطهوت طعامي ، وأكلت واقفاً على رجليّ . وأردت أن أدخن لفافة أخرى عند النافذة ، لكن الليل ازداد رطوبة فعدلت عن ذلك . وفيما أنا أعود أدراجي بعد أن أغلقت النافذة ، ألقيتُ نظرة على المرأة فرأيتُ على صفحتها زاوية من مائدتي وفوقها مصباح السبورتو وقطعاً من الخبز . وفكرت أنه يوم أحد آخر قد انقضى ، وأن أمي دفنت ، وأنتي في الغداة عائد إلى عملي كالمتعاد . إن شيئاً من حياتي ، في الحقيقة ، لم يتبدل قط .



كان صباحي في المكتب مليئاً بالعمل ، ومخدومي طيب المزاج . بل سألني إن لم أكن تعبت كثيراً ، وأتبع ذلك فسألني عن عمر أُمي . فكرت قليلاً ، ومن بعدُ أجبت :

- في حدود الستين تقريباً .

لم أكن أريد أن أخطيء في تقدير عمرها . وبدا أنه تعزى - ولا أعلم لماذا - وأن ذلك السؤال ختم القضية .

كان ثمة كومة من فواتير الشحن مكدسة على منضدتي ، وعليّ أن أنظر فيها كلها . غسلت يديّ قبل أن أترك المكتب لتناول طعام الغداء . كنت أحب أن أفعل ذلك عند الظهيرة دائماً . أما عند المساء فإن سروري يقل كثيراً لأن المنشفة الملفوفة تكون رطبة بعد أن يستعملها عدد كبير من الناس . وقد لفتُ نظر مخدومي مرة إلى ذلك . فأجابني إن الأمر مؤسف حقاً - ولكنه يرى ذلك أمراً لا أهمية له . خرجت من المكتب وقد تأخرت قليلاً عن المعتاد ، في الثانية عشرة والنصف ، برفقة عمانويل الذي يعمل في مكتب الشحن . كان مكتبنا يطلُّ على البحر ، فتوقفنا فترة على السلم نتطلع إلى تحميل البواخر في الميناء . وكانت الشمس لافحة . ووصلت شاحنة كبيرة في تلك اللحظة بالذات ، ترافقها ضجة سلاسل وانفجارات في محركها ، فاقترح عمانويل أن نحاول

اللاحاق بها . بدأت أركض . تجاوزتنا الشاحنة ، وكان ينبغي علينا أن نركض مسافة طويلة للحاق بها . شعرت بشيء من الدوار من جراء الحرارة وضجيج المحرك . لم أكن أعني غير ركضنا الجنوني على طول رصيف الميناء ، بين الآلات والرافعات ، وصواري السفن السوداء المتراقصة في عرض البحر . كنت أول من لحق بالشاحنة . فوثبت ، وحطيت بسلام ، وساعدت عمانويل على الصعود إلى جانبي . لم نكن نستطيع التنفس ، وكانت ارتطامات الشاحنة على حصي الطريق غير المتساوية تزيد الأمور سوءاً . وضحك عمانويل ، ولهث في أذني :

- فعلناها !

عندما وصلنا إلى مطعم سيلبيست كنا نسبح في عرقنا . كان سيلبيست قابلاً في ركنه المألوف إلى جانب المدخل ، ومريوله ينتفخ على بطنه ، وشاربه الأبيض بارز إلى الأمام . ولما رأيته أظهر عطفه عليّ ، وأعلن أنه «يأمل أن تكون الأمور على خير ما يرام» . فأجبت بالاجاب . كنت أتضور جوعاً . التهمت طعامي في سرعة ، وشربت قهوة ، ثم ذهبت إلى شقتي وغفوت قليلاً بعد أن شربت أكثر مما ينبغي من الخمرة . وعندما استيقظت دخت لفافة قبل أن أنهض من فراشي . تأخرت قليلاً فَوَجَبَ عليّ أن أركض للحاق بالترام . كان المكتب خائناً ، واشتغلت جاهداً طوال بعد الظهر . اغتبطت كثيراً عندما أغلقنا المكتب ، ورحت أسير على مهلة على طول رصيف الميناء تنفحني برودة العشية . كانت السماء خضراء ، وكنت مسروراً لخروجي من ذلك الجو الخانق في المكتب ، وعلى أي حال ، فقد قفلت رأساً إلى البيت لأضع قليلاً من البطاطا على النار .

كانت الصالة مظلمة ، فما أن بدأت أرقى في السلم حتى اصطدمت بالعجوز سالامانو الذي يقطن إلى جوارني . كان يصطحب كلبه معه على جري عادته .

لم يفترق الاثنان عن بعضهما طوال ثماني سنوات كاملة . كلب سالامانو حيوانٌ بشعٌ ، قصير القوائم ، طويل الشعر متموج ، كبير الأذنين مسترخيهما ، مصاب بمرض جلدي - الجرب على ما أعتقد . وقد فقد نتيجة ذلك شعره الطويل وتغطى جسده بقشرة سمراء اللون .. ولا ريب أن سالامانو ، لكثرة ما عاش في غرفة صغيرة واحدة مع كلبه الصغير ، انتهى إلى أن يشبه كثيراً ، فقلَّ شعره وانتشرت على وجهه بقع حمراء . وأخذ الكلب عن صاحبه نوعاً من مشيته المقوسة الغريبة ، فهو يمدُّ بوزه إلى الأمام ويشدُّ أنفه صوب الأرض . كان الاثنان يشبهان بعضهما بصورة غريبة ، ولكنهما يكرهان بعضهما كثيراً . كان العجوز يصحب كلبه مرتين يومياً ، في الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة ، في نزهة قصيرة ، ومنذ ثماني سنوات لم يتغير أسلوب نزهتهما . كنت أستطيع رؤيتهما على طول شارع ليون والكلب يسحب صاحبه بجماع قوته حتى يتعثر العجوز أخيراً ويكاد أن يهوي على الأرض . وعندها يضرب كلبه ويشتمه . وينكمش الكلب من الخوف ، ويروح يتلکأ في خطواته ، فيحين دور صاحبه أن يسحبه . وعندما ينسى الكلب ، ويروح يشدُّ صاحبه كرة أخرى ، فهو يُضرب من جديد ويهان . وعندها يتوقفان على الرصيف ، كلاهما ، ويحدق كلُّ منهما في وجه الآخر ، الكلب في خوف ، والرجل في حقد يلتمع في عينيه . ويتكرر هذا المشهد يومياً . وعندما يحبُّ الكلب أن يقف ليبول يمنعه العجوز عن ذلك ، ويشده خلفه ، فيخلف الكلب المسكين وراءه خطأً من النقط الصغيرة . وإذا فعل الكلب ذلك في الغرفة فهو يتعرض للضرب أيضاً .

هذا المشهد يستمر منذ ثماني سنوات ، ويقول سيلبيست دائماً إنه «عار صارخ» ، وإنه يجب أن يفعل أحدهم شيئاً بهذا الخصوص . لكن أحداً لم يتدخل في الموضوع . عندما التقيت سالامانو في الصالة كان يشتم كلبه ، وينعته بالنفل ، والحيوان الحقير ، وما شابه ذلك . وكان الكلب يثن : فقلت :

- نعمت مساء .

بيد أن العجوز لم يردّ عليّ ، وتابع سيل شتائمه . خطر لي أن أسأله عن ذنب الكلب . فما أعطاني جواباً مرة أخرى ، ولكنه استمر يصيح :  
- أيها الخسيس الحقير !

لم أكن أتبين شيئاً في العتمة ، وخيل لي أنه يُثبت شيئاً في رقبة الكلب . رفعت نبرة صوتي قليلاً . فتعتم من غير أن يلتفت في شيء من غضب مكبوت :  
- إنه ينرفزني دائماً ، لعنة الله عليه !

صعد في السلم . حاول الكلب أن يقاوم فثبتت قوائمه على الأرض ، ولكن العجوز جرّه على الدرجات جرّاً .

في تلك اللحظة دخل جاري الثاني من الشارع . كانت الفكرة العامة عنه في الحيّ أنه يعمل قواداً . فإذا سأله أحدهم عن مهنته يقول إنه حانوتي . وكان ثمة شيء أكيد عنه : فهو لم يكن محبوباً على الإطلاق في الشارع . وكان يحادثني أحياناً ، ويزورني في غرفتي لتزجية الوقت ، وقد كنت أصغي اليه ، وأجد أن ما يقول يبعث على الاثارة . والحق أنني لا أملك حجة لطرده . كان يدعى سانتيس ، ريمون سانتيس . قصيراً ، عريض الكتفين ، أنفه أشبه بأنوف الملاكين ، أنيق الهدام على الدوام . قال لي مرة ، مشيراً إلى سالامانو ، إن حاله عبارة عن «عار فاضح» ، وسألني إن لم يكن عمل العجوز ضد كلبه يبعث على اشمئزازي . فأجبت قائلاً :

- لا .

رقينا في السلم معاً ، أنا وسانتيس ، وما أن استدرت مقترباً من باب غرفتي حتى بادرنني قائلاً :

- رويدك ! ما رأيك في تناول شيء من الطعام معي ؟ إن لديّ مقائق وقليلاً من الخمرة .

خطر لي أن ذلك يوفر عليّ عناء إعداد طعامي ، فقلت :  
- شكراً جزيلاً .

هو الآخر يملك غرفة واحدة ، ومطهي صغيراً من دون نافذة . ورأيت ملائكة  
من الجص الأبيض والوردي موضوعاً فوق سريره ، وبعض صور أبطال  
رياضيين ، وفتيات عاريات موزعة على الجدار المقابل . لم يكن السرير مرتباً ،  
كما أن الغرفة قذرة . أشعل قنديل الكاز ، وبحث في جيبه ، وأخرج رباطاً  
وسخاً لفّ به يده اليمنى . سأله ممّ يشكو . أجاب إنه تشاجر مع شخص كان  
ينوي إزعاجه .

شرح لي الأمر قائلاً :

- لست ممن يبحثون عن المتاعب . ولكنني سريع الاحتداد نوعاً ما . قال  
لي ذلك الشخص في شيء من التحدي : «إنزل من هذا الترام إن كنت رجلاً» .  
فأجبت : «إجنح إلى هدوء ، فأنا لم أزعجك قطّ» . فأجابني إنني لست رجلاً .  
حسناً ، عندها نزلت . وقلت له : «يحسن أن تبقي فمك مغلقاً ، وإلا أغلقته  
لك أنا» . فقال : «أحب أن أراك تفعل ذلك !» . لطمته على وجهه لطمة قوية .  
وقع . اقتربت بعد قليل لأنفضه ، فركلني من حيث هو على الأرض . ضربته  
بركبتني وأتبعتهما بلطمتين أخريين . كان ينزف مثل خنزير . سأله إن كان ذلك  
كافياً ، فأجاب : «نعم» .

كان سانتيس منهمكاً في لفّ رباطه خلال الحديث ، وكنت جالساً على  
السرير .

قال :

- وهكذا أنت ترى أنها لم تكن غلطتي . هو طلب ذلك ، ما ؟  
فأومأت برأسي ، فأضاف :

- الحقيقة أنني أريد أن أسألك النصيح في موضوع هذه القضية . لقد تحولت

في العالم قليلاً ، وأجروا على القول إن في مقدورك أن تساعدني . وعندها أصبح رفيقك مدى الحياة . فأنا لا أنسى من قدم لي عوناً .

لم أرد . سألتني إن كنت أريد أن نصير صديقين . أجبت أنني لا أعترض على ذلك ، فأهرق جوابي الغبطة في فؤاده . أخرج بعض المقائق ، وطبخها في المقلاة ، ثم هبأ المائدة ، ووضع زجاجتين من النبيذ وهو معتصم بالصمت طوال الوقت .

بدأنا نأكل ، راح يروي لي قصته كلها في شيء من التردد أول الأمر :  
- ثمة فتاة في هذا الموضوع - كالعادة . كنا ننام معاً . وكنت أحتفظ بها ، وأنفقت عليها مبلغاً من المال . والشخص الذي ضربتُ هو شقيقها .  
أضاف ، وقد لاحظت أنني لم أرد عليه بحرف واحد ، أنه يعرف ما يقول الجيران عنه . ولكن ذلك لا أساس له من الصحة ، فهو صاحب مبادئ مثل أي إنسان آخر ، كما أنه يعمل في حانوت .  
وقال لي :

- حسناً . فلنتابع قصتنا ... أدركت ذات يوم أنها تخونني . كان يعطيها ما يكفي للاستمرار في الحياة لا أكثر ، ويدفع أجر غرفتها وعشرين فرنكاً يومياً لقاء الطعام . «ثلاثمئة فرنك أجره الغرفة ، وستمئة فرنك للطعام ، وهدية صغيرة بين وقت وآخر ، زوج من الجوارب أو سوى ذلك . لنقل ألف فرنك في الشهر . ولكن ذلك لم يكن يكفي سيدتي الجميلة . فهي لا تنق أن ما أعطي لها لا يكفيها . سألتها ذات يوم : «اسمعي ، لم لا تبحثين عن عمل يستغرق منك عدة ساعات في اليوم ؟ ذلك يسهل الأمور عليّ أيضاً . لقد اشتريتُ لك ثوباً جديداً هذا الشهر ، ودفعت أجر غرفتك ، وأعطيتك عشرين فرنكاً يومياً . لكنك تبغثرين نقودك في المقهى مع عصابة من الفتيات . أنت تعطيهن سكرًا وقهوة ، وطبيعي أن ثمن ذلك يخرج من جيبني . أنا أحسنُ معاملتك ، وأنت تردين لي



ذلك بصورة سيئة» . لم تكن تصغي إلى حديثي عن العمل ، رغم أنها لا تفنأ تقول إنها لا تستطيع تدبير الأمور بما أدفع لها . وذات يوم اكتشفت أنها تخدعني .

وتابع حديثه فشرح لي أنه اكتشف يوماً ورقة يانصيب في حقيبتها ، ولما سألها من أين تدبرت المال لشرائها سكتت فما أعطته جواباً . ثم اكتشف مرة أخرى بطاقة رهن سوارين لم يرها تلبسها قط من قبل .

- وهكذا اكتشفت أن ثمة خداعاً ، فأخبرتها أن الأمور انقطعت بيننا . ولكنني ضربتها بشدة أول الأمر ، ورويتُ لها نتفاً عن حقائقتها . قلت لها إنها لم تكن تبالي بشيء قدر اهتمامها بالاندساس في الأسرة مع الرجال حيثما أتبع لها ذلك . وحذرتها مباشرة : «ل سوف تندمين ذات يوم ، يا فتاتي ، وتتمنين العودة إليّ . إن جميع فتيات الشارع يحسدنك على حظك في احتفاظي بك» .

كان قد ضربها حتى أدمأها . ولم يكن فعل ذلك من قبل . حسناً ، لم أضربها بعنف على أية حال . لكن بلطف ، إن صح التعبير . صرختُ قليلاً ، فاضطرت إلى إغلاق النافذة . ثم كانت تنتهي الأمور على مألوف العادة . أما هذه المرة فضربتها بشدة . ولكنني لم أعاقبها عقاباً كافياً على ما يخال لي . أتفهم ما أعنيه ؟

أوضح لي أنه يطلب نصيحتي في هذا الموضوع . كانت فتيلة المصباح تدخن ، وتوقف عن غدوّه ورواحه لإصلاحها . كنت أصغي إليه دون أن أفوه بحرف واحد . وكنت شربت زجاجة كاملة من النبيذ فبدأت رأسي تدور . ولما لم أعد أملك أية لفافة شرعت أدخن لفافات ريمون . ومَرّت آخرُ حافلات الترام ، فهمدت آخر ضجة للشارع مع مرورها . وتابع ريمون حديثه . إن ما يضجره هو أنه «انغمس معها في اللذة» ، على حدّ تعبيره . ولكنه يريد أن يلقنها درساً .

قال إن أول فكرة خطرت له هي أن يقودها إلى فندق ، ومن ثم يستدعي شرطة «الأخلاقية» . ولسوف يقنع الشرطة بتدوين اسمها على «لائحة البغايا» مما يفقدها صوابها . ثم توجه إلى عدد من أصدقائه من عالم الرذيلة والإجرام ، أصدقاء يعاشرون مومسات يستطيعون استشارتهن ، فلم يخرج منهم بنتيجة مرضية . وأشار إلى أن من مصلحة المرء أن يكون من ذلك العالم في شارعهم . فما هي الفائدة في أن تكون واحداً من أبناء ذلك العالم إذا كنت تجهل كيف تعامل فتاة خدعتك ؟ عندما أوضح لهم ذلك اقترحوا عليه أن «يسمها بالنار» ولم يكن ذلك ما يرجوه . ذلك يحتاج إلى تفكير طويل ... إنه يودّ قبل كل شيء أن يسألني سؤالاً . وقبل أن يطرح عليّ هذا السؤال فهو يودّ أن يعرف رأيي في القصة التي يسردها عليّ بصورة عامة .

أجبت أن لا رأي لي فيها ، ولكنها كانت مثيرة .  
هل أعتقد أنها خدعته حقاً ؟

يجب أن أعرف أن الأمور تشير إلى ذلك . ثم سألني ما إذا كنت أعتقد بوجود معاقبتها ، وماذا كنت أفعل لو كنت مكانه . فأجبت إن المرء لا يستطيع أن يعرف تماماً كيف يتصرف في مثل هذه الأحوال ، ولكنني فهمت أنه يريد إنزال العقاب بها .

شربت مزيداً من الخمرة . أشعل ريمون لفافة أخرى وشرع يشرح لي ما اعتزم أن يفعل . أراد أن يكتب لها رسالة ، «تعبّ ازدياء وتجرح مشاعرها» ، وتحملها في الوقت ذاته على الندم مما اجترحت . ومن بعدّ ، عندما تعود إليه ، فسوف ينام معها ، وعندما «ينتهي بالضبط» فسوف يبصق في وجهها ويطردها من الغرفة . فوافقت على أن الفكرة لا بأس بها . لسوف تُنزل عقاباً جيداً . لكن ريمون أعلمني أنه لا يحسّ نفسه قادراً على كتابة الرسالة التي يحتاج إليها ، وهناتكم مساعدتي له . ولما لم أقل شيئاً سألني إن كان يضجرني أن

أكتبها له ، فقلت : «كلا» .

شرب قدحاً من الخمرة وانتصب على قدميه . أزاح الصحن وما تبقى من مقائق باردة ليفسح مجالاً على المنضدة . ثم مسحها بقطعة من القماش المشمع ، وأخرج ورقة مربعة من أحد الدروج إلى جانب المنضدة ، ثم أخرج مغلفاً ، ومسكة ريشة صغيرة من الخشب الأحمر ، وزجاجة حبر مربعة الشكل تموج بحبر بنفسجي اللون . وما أن ذكر لي اسم الفتاة حتى عرفت أنها مغربية .

كتبت الرسالة . لم أبذل شيئاً من الجهد في ذلك ، ولكنني اجتهدت في إرضاء ريمون لأنه ليس ثمة سبب يدعوني ألا أرضيه . ثم قرأت ما كتبت في صوت عال . فأصغى إليّ وهو ينفث دخان لفافته ، ويوميء برأسه بين لحظة وأخرى . قال :

- اقرأها مرة أخرى .

وبدا السرور على ملامحه .

ضحك قائلاً :

- هذا ما أريده تماماً . أستطيع أن أقول إنك فتى ذكيّ ، أيها الفتى

العجوز ، وأنت تعرف كيف تضع النقاط على الحروف .

لم أكن انتبهتُ قبلاً إلى هذه «الفتى العجوز» . تنبّهت إلى ذلك عندما ربّت بشدة على كتفي ، وقال :

- هذان نحن صديقان إذن ، أليس كذلك ؟

جنحت إلى الصمت ، فردد جملة مرة أخرى . لم أكن أبالي بذلك ، ولكنني

عندما لحظت تلهفه أجبت قائلاً : «بلى» .

وضع الرسالة في المغلف ، وأتينا على ما تبقى من الخمرة . ثم جلسنا فترة

ندخن من غير أن نتحدث . كان الشارع هادئاً تماماً ، اللهم إلا حين تمر سيارة

بين فترة وأخرى . وقلت أخيراً إن الوقت تأخر ، فوافقني ريمون على ذلك .

وأضاف قائلاً :

- لقد مرّ الوقت سريعاً هذا المساء .

كان كلامه صحيحاً على نحو ما . أردت أن أصل إلى سريري ، وكنت أحسّ مشقةً في الحركة . ويبدو أنني بدوت متعباً . فقد قال لي ريمون :

- يجب ألا يترك المرء هذه الأمور تركه .

لم أفهم قصده أول الأمر . ثم أوضح لي أنه سمع عن موت أمي . وأضاف إن هذا شيء لا بدّ أن يحدث اليوم أو غداً . فشكرته على ذلك .

عندما نهضت صافحني ريمون بحرارة ، وقال إن الرجال يفهمون بعضهم بعضاً على الدوام . وما أن أغلقت الباب خلفي حتى تمهلت لحظات على بسطة السلم . كان البيت صامتاً صمت القبر ، وثمة رائحة رطبة سوداء تهبّ من ثغرة السلم . لم أكن أسمع شيئاً غير الدم الذي يطن في أذنيّ ، فوقفت أصغي إليه . وبدأ الكلب يثن في غرفة سالامانو ، وارتفع هذا الأنين تدريجياً مثل وردة تتفتح في الصمت والعتمة .

عملت كثيراً في المكتب طوال الأسبوع . مرَّ بي ريمون مرة وأنبأني أنه بعث الرسالة . ذهبت إلى السيِّما مرتين برفقة عمانويل الذي لم يكن يفهم دأنا ما يجري على الشاشة ويلحُّ عليَّ أن أشرح له ذلك . البارحة كان السبت . جاءت ماري كما اتفقنا . كانت ترتدي ثوباً جميلاً ذا خطوط حمراء وبيضاء . وصندلاً جلدياً ، فلم أستطع أن أرفع عينيَّ عنها . وكان المرء يستطيع أن يرى خطوط نهديها الصغيرين القاسيين ، وكان وجهها الذي لَوَّحته الشمس يشبه وردة مخملية بنية اللون . ركبنا الباص وذهبنا إلى الشاطئ الذي أعرف ، ويقع على بعد عدة أميال عن مدينة الجزائر . انه عبارة عن شريط من الرمل بين صفيين من الصخور ، غرست في أحد جانبيه غابة من القصب من ناحية اليابسة . لم تكن الشمس حارة في الساعة الرابعة ، وكان الماء فاتراً ، وموجات صغيرة كسلى تزحف على الرمل .

علمتني ماري لعبة جديدة : أن نشرب ونحن نسبح الزبد المنتشر على الموج ، ومن بعد نستلقي على ظهرينا ونبصقه في وجه السماء . وكان ذلك يشكل نوعاً من ضباب رقيق مزبد يتبدد في الهواء أو يساقط رذاذاً دافئاً على وجهينا . وسرعان ما التهب فمي بحرارة الملح الذي ابتلعت . وجاءت ماري وعانقتني في الماء وألصقت فمها بفمي . رطب لسانها شفتيَّ ، وتركنا الأمواج

نُدحرجنا دقيقة أو دقيقتين قبل أن نسبح عائدين إلى الشاطئ .  
ما أن انتهينا من ارتداء ملابسنا ، حتى راحت ماري تتطلع إليّ في قسوة .  
كانت عيناها تبرقان . فقبلتها ، وصمت كلانا بعد ذلك فترة من الزمن .  
ألصقتها بي ونحن نغذُ الخطأ على الشاطئء للحاق بالباص . ورجعنا إلى  
غرفتي ، وارتقمنا على السرير . تركت النافذة مفتوحة ، وكان لذيذاً أن نشعر  
بهواء الليل البارد يسبح فوق جسدنا اللذين لوحتهما الشمس .

قالت ماري إنها حرة صباح اليوم التالي ، فاقترحت عليها أن نتناول الغذاء  
معاً . فوافقت . ونزلت أشتري قليلاً من اللحم . وفيما أنا عائدة إلى غرفتي  
سمعت صوت امرأة في غرفة ريمون . وبعد قليل بدأ العجوز سالامانو يزجر في  
وجه كلبه ، وتعالى صدى نعال ومخالب على درجات السلم الخشبية ، ثم صوت  
يقول : «حيوان قذر ! أخرج ، أيها الخسيس !» . وخرج كلاهما إلى الشارع .  
رويت لماري عادات العجوز ، فضحكت . كانت ترتدي إحدى مناماتي وقد  
شمّرت كميتها . وعندما ضحكت اشتبهتها مرة أخرى . سألتني بعد لحظة إن  
كنت أحبها . فقلت إن هذا الضرب من الأسئلة لا يحمل أي معنى فعلاً ،  
ولكنني أعتقد أنني لا أحبها . فارتسمت على وجهها آيات الحزن ، وبينما نحن  
نهمى طعام الغذاء أشرقت بلامحها وجعلت تضحك ، وكنت أود تقبيلها كلما  
فعلت ذلك . وفي تلك اللحظة انفجرت المشادة في غرفة ريمون .

سمعنا أول الأمر صوت امرأة يردد شيئاً من صوت مرتفع الرّنة ، ثم صوت  
ريمون يزجر رداً عليها :

- لقد خدعتني ، يا كلبة ! سأعلمك كيف تخدعيني !  
ودفأ بعد ذلك صوت ضربات ، ثم صدى صرخة ثاقبة - يقشعها جسد  
المرء . ولم تمض لحظات حتى غصّ السلم بالناس . خرجت وماري لالقاء  
نظرة . كانت المرأة لا تبرح تصرخ وريمون لا يفتأ يضربها . وقالت ماري إن



الأمر رهيب ! فلم أرد عليها بحرف . ثم طلبتُ إليَّ أن أنطلق فأحضر شرطياً ، ولكنني أجبتها إنني لا أحب رجال الشرطة . ورغم ذلك انبثق أحدهم في وسطنا . وجاء معه مستأجر الطابق الثاني ، وهو سمكري . عندما قرع على الباب انقطعت الضجة في الغرفة . وقرع مرة أخرى ، بعيد لحظات ، فشرعت المرأة تبكي ، وفتح ريمون الباب . كان ثمة لفافة تتدلى عن شفته السفلى ، وقد خلع على وجهه ابتسامة باهتة .

- ما اسمك ؟

فأعطاه ريمون اسمه .

قال الشرطي في جفوة :

- ارم اللفافة من فمك عندما تحدثني .

تردد ريمون ، وتطلع إليَّ ، وترك اللفافة في فمه . ولوّح الشرطي ذراعه وصفعه صفقة قوية على خده الأيسر . طارت اللفافة من بين شفتيه وسقطت على بعد أمتار عديدة . تبدل وجه ريمون ، ولكنه لم يقل شيئاً في الحال . ثم سأل في صوت متواضع إن كان يستطيع أن يلتقط لفافته عن الأرض .

أجابه الشرطي بالاجاب ، وأضاف

- لكن لا تنسَ في المرة القادمة أننا لا نأتي أعمالاً سخيفة ، ولا نتوقع مثلها من حمقى مثلكم .

وتابعت الفتاة في تلك الأثناء نشيجها ، وهي تكرر :

- لقد ضربني ، هذا الجبان . انه قوَّاد .

فتدخل ريمون قائلاً :

- اعذرني ، أيها الضابط . هل من القانون أن يوصم المرء بالقوادة في حضور الناس ؟

أمره الشرطي «أن يسدَّ بوزه» .

فالتفت ريمون إلى الفتاة :

- لا تقلقي ، يا حبيبتي ، فسنلتقي ثانية .

قال الشرطي :

- كفى .

وأمر الفتاة أن تذهب . وكان يجب أن يبقى ريمون في غرفته حتى يُستدعى من قبل المخفر .

أضاف الشرطي :

- يجب أن تخجل من نفسك . فأنت سكران إلى درجة أنك لا تستطيع الوقوف على قدميك . إنك ترتجف من رأسك حتى أخمصيك !

فأجاب ريمون :

- أنا لست سكران . ولكنني لا أستطيع الامتناع عن الارتجاف وأنا أراك واقفاً أمامي تحملق في . هذا شيء طبيعي .

أغلق باب غرفته . وتفرقنا جميعاً . أنهيت وماري إعداد الطعام . ولكنها لم تكن جائعة ، فأكلتُ كلَّ شيء تقريباً . تركتني في الساعة الواحدة ، فنمت قليلاً .

قرع بابي حوالي الساعة الثالثة ، وانفرج عن ريمون . جلس على حافة سريرى واعتصم بالصمت طوال لحظات . سألته كيف جرت الأمور . فأجاب إن الأمور سارت على خير ما يرام أول الأمر ، مثلما تمَّ الاتفاق عليه . ولكنها صفعته ، فاحمأً وشرع يضربها . أما ما وقع بعد ذلك فقد رأيته بعيني .

قلت :

- حسناً . علّمتها درساً وهذا ما كنت تريد ، أليس كذلك ؟

فوافق ، وقال إنه مهما عملت الشرطة فلن تبدل حقيقة إنزاله العقاب بها . أما بالنسبة إلى رجال الشرطة فهو يعرف كيف يعاملهم . ولكنه يؤدُّ أن يسألني

ما إذا توقعت منه أن يرد الصفحة للشرطي الذي ضربه .  
أجبتة أنني لم أتوقع منه شيئاً . وعلى أية حال ، فإن الشرطة لن تأخذ مني شيئاً من معلومات . سرّ ريمون ، وسألني ما إذا كنت أحب أن أخرج للنزهة معه . نهضت عن سريري وبدأت أسرح شعري . قال لي ريمون عندها إنه يحب حقاً أن أشهد في صالحه . فأجبتة أنني لا أعترض على ذلك . ولكنني لم أعرف ماذا كان يتوقع مني أن أقول .  
أجاب :

- الأمر في غاية البساطة . أخبرهم فقط أن الفتاة خدعتني .  
فوافقت على أن أشهد في مصلحته .

خرجنا معاً ، فطلب لي ريمون كأساً من البراندي في المقهى . ثم لعبنا شوط بليارد . خسرت في آخر لحظة . واقتراح عليّ بعد ذلك أن نذهب إلى الماخور ، فرفضت . فأنا لا أحب ذلك . وفيما نحن نعود أدراجنا على مهلة أخبرني كم كان سعيداً لأنه عاقب عشيقته بصورة أرضته . كنت أجده لطيفاً معي ، واغتنبت كثيراً من نزهتنا معاً . ولم نكد نقرب من البيت حتى رأيت العجوز سالامانو عند الباب . كان يبدو متعباً . ورأيت أن كلبه لم يكن معه . كان ينظر في جميع الجهات ويدور حول نفسه ، وأحياناً يمدُّ بصره خلال عتمة الرواق بعينه الصغيرتين المحمرتين . كان يتمتم شيئاً بينه وبين نفسه ، وينطلق من جديد يفتش في الطريق روحة رجعة .

سأله ريمون ما الأمر ، فلم يجبه على الفور . ثم سمعته يجمجم :  
- ذلك اللعين ! ذلك الخسيس القذر !  
ولما سألته عن كلبه عبس في وجهي وشخر قائلاً :  
- هرب !

بعيد برهة قصيرة شرع يشتمه على غير انتظار :

- لقد أخذته معي إلى النزهة كالعادة . وكان ثمة معرض هناك فلا يستطيع المرء أن يتحرك إلا في صعوبة بالغة . وتوقفت عند أحد الأكشاك أنفرج على «ملك الأغلال» . وعندما استدرت لمتابعة سيرى لم أجد الكلب . كنت أنوي أن أشتري له طوقاً أصغر ، ولكنه لم يخطر لي في بال أن الحيوان يستطيع أن ينزلق من طوقه القديم ويهرب هكذا .

أكد له ريمون أن الكلب سيجد طريق عودته إلى البيت ، وروى له قصصاً عن كلاب اجتازت عشرات الأميال لتعود إلى أصحابها . ولكن ذلك ، على ما يبدو ، ضاعف من قلق العجوز أكثر من ذي قبل .

- ألا تعرفان ؟ لسوف يأخذونه . أعني رجال الشرطة . يبدو أن أحداً لن يأخذه ويعنى به . إن البثور المنتشرة على جسمه ستنفّر الجميع منه .

قلت له إن ثمة زريبة في مركز الشرطة يجمعون فيها الكلاب الضالة . ولا بدّ أن كلبه هناك ، ويستطيع استرداده مقابل مبلغ تافه من المال . فسألني عن مقدار هذا المبلغ ، ولكنني لم أكن أعرف . واذّك غضب من جديد .

- هل تريدني أن أدفع مالاً من أجل هذه الجيفة ؟ لا ، وحق الله ! فليقتلوه . لست أبالي .

وراح ينادي على كلبه بالأسماء المعهودة .

ضحك ريمون ودلف إلى البيت . تبعته على السلم ، وافترقنا عند البسطة . بعد دقيقة أو دقيقتين سمعت خطوات سالامانو وقرعاً على بابي .

- اعذرني ... أمل ألا أزعجك .

طلبت إليه الدخول ، فهزّ رأسه . كان يحدق في طرف حذائه ، ويداه المقشرتان العجوزان ترتعشان . شرع يقول دون أن يتطلع في وجهي :

- إنهم لن يأخذوه مني حقاً ، يا سيد ميرسو ؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا ذلك . أما إذا فعلوه - فلست أدري ما يمكن أن يصيبني .

قلت له إن زريبة الكلاب ، على حد علمي ، تحتفظ بالكلاب الشاردة طوال  
ثلاثة أيام في انتظار أن يطلب أصحابها استردادها . وبعد ذلك يتصرفون بها كما  
يرون مناسباً .  
حملق في في صمت لحظة ، وقال :  
- نعمت مساء .

سمعته بعد ذلك يراوح في غرفته ويغادي طوال فترة . ثم صرَّ سريره . ودفعاً  
إلى عبر الجدار صدى تشيج خافت ، فعرفت أن العجوز يبكي . ولست أدري  
لماذا شرعت أفكر في أمي . وكان يجب أن أنهض باكراً في الغداة ، ولم أكن  
أشعر بالجوع ، فأسرعت إلى سريرتي دون أن أتناول العشاء .

هتف ريمون إلى المكتب . قال إن أحد أصدقائه - وكان حدثه عني - يدعوني إلى قضاء نهار الأحد في كوخه الصغير على جانب البحر في ضاحية مدينة الجزائر . أجبته أنني أرحب بالفكرة ، ولكنني وعدت أن أقضي نهار الأحد مع فتاة . فردّ ريمون على الفور أنه يدعوها هي الأخرى . فزوج صديقه ستسرّ فعلاً ألا تكون وحيدة بين مجموعة من الرجال .

أردت أن أغلق المسامح حالاً لأن مخدومي يكره أن يستعمل أحدنا هاتف المكتب في مكالمات خاصة . ولكن ريمون سألني أن أنتظر ، فثمة أمر آخر يريد إطلاعي عليه ، وبسببه اتصل بي ، رغم أنه كان في مقدوره الانتظار حتى المساء لإبلاغي الدعوة . قال :

- الأمر كما يلي : يلاحقني منذ الصباح جماعة من العرب ، أحدهم هو شقيق تلك الفتاة التي ضربتها . فإذا رأيته يتجول أمام البيت عندما تعود ، فاخبرني .

وعدت أن أفعل ذلك .

في تلك اللحظة أرسل مخدومي يستدعيني . أحسست بالقلق برهة . توقعت أن يطلب إليّ الالتفات إلى عملي وعدم إضاعة الوقت في الثروة مع الأصدقاء على الهاتف . وعلى أية حال ، فإن شيئاً من هذا لم يقع . كان يريد مناقشتي

في موضوع يدرسه ولم يصل فيه إلى نتيجة أو قرار . كان يؤد أن يفتح فرعاً في باريس ، مما يسمح له بالتعامل مع الشركات الكبيرة في المكان ذاته ، من دون تأخير في المراسلات البريدية ، وهو يريد أن يعرف إذا كنت مستعداً للذهاب إلى هناك . قال :

- أنت شاب ، وأنا واثق أنك سستمتع بالحياة في باريس . وطبيعي أنك تستطيع أن تسافر في فرنسا عدة أشهر كل عام .  
أبدت له استعدادي للذهاب ، ولكنني لم أكن أبالي في الحقيقة إن تم ذلك أم لم يتم .

سألني عندها ما إذا كان «تبدل في الحياة» يروقني أم لا ، فأجبت أن المرء لا يغير حياته قط ، وأن جميع الحيوانات تتساوى على كل حال ، وأن حياتي الحالية لا تسوؤني قط .

بدا لي عندها أنه استاء ، وقال إنني أجيب على الدوام أجوبة جانبية ، وإنني لم أكن طموحاً - وإن ذلك فاجعاً إذا كان المرء يعمل ، على حد تعبيره . رجعت إلى عملي . كنت أفضل ألا أثير استياءه ، ولكنني لم أجد سبباً يدعو إلى «تبدل في الحياة» . لم تكن حياتي تعيسة ، على أية حال . يوم كنت طالباً كان عندي طموح كبير من هذا النوع . أما عندما اضطررت إلى ترك الدراسة فقد فهمت بسرعة أن هذا كله عبثٌ مجرّد .

جاءت ماري تلك العشيّة وسألتنني إن كنت أتزوجها . أجبتها أنني لا أبالي بذلك . إن كانت تريد أن أتزوجها فأنا على استعداد .

سألتنني مرة أخرى إن كنت أحبها . فأجبتها كما سبق أن أجبت مرة أن سؤاها لا يعني شيئاً بالنسبة إليّ - ولكنني ، من دون ريب ، لا أحبها .  
قالت :

- إذا كان هذا شعورك ، فلماذا تتزوجني ؟



شرحت لها أن الأمر لا يحمل أية أهمية ، وأنه إذا كان الزواج يهرق الغبطة في فؤادها فلنتزوج حالاً . وأشارت على أية حال إلى أن الاقتراح صدر عنها . أما أنا فأكتفي بالموافقة .

أعلنت عندئذ أن الزواج شيء له أهميته .

فأجبت :

- كلا .

لجأت إلى الصمت ، وراحت ترنو إليّ بنظرة فضولية . ثم سألت :

- افرض أن فتاة أخرى سألتك أن تتزوجها - أعني فتاة تستلطفها مثلاً تستلطفني أنا - فهل تقول لها «نعم» أيضاً ؟

- من دون ريب .

وعندها قالت إنها تتساءل ما إذا كانت تحبني أم لا . لم أكن أستطيع أن أعرف شيئاً بهذا الخصوص . وبعد فترة أخرى من الصمت . تمتت شيئاً عن أنني «فتى غريب» ، وأضافت :

- وأجرؤ على القول إنني أحبيتك لهذا السبب . لكن ربما يجيء يوم أكرهك فيه لهذا السبب أيضاً .

لم يكن لديّ ما أقول ، فأخلدت إلى الصمت .

فكرت قليلاً ، ثم شرعت تبتسم ، وأخذت ذراعي ، وكررت أنها في عجلة من أمرها ، وأنها تريد حقاً أن تتزوجني .

أجبت :

- حسناً ، سنتزوج عندما تريدان .

حدثتها عن العرض الذي اقترحه مخدومي ، فقالت إنها تحب أن تذهب إلى باريس .

وعندما أخبرتها أنني عشت فترة في باريس سألتني عنها . قلت :

- مدينة وسخة في رأيي . رفوف من الحمام وساحات سوداء . والناس نظيفون ، وجوههم بيضاء .

خرجنا في نزهة على طول شوارع المدينة الرئيسية . كانت النساء جميلات ، فسألتُ ماري إن كانت ترى ذلك هي الأخرى . أجابت بالايجاب . وأنها تفهمني . وانقطعتنا عن الحديث فترة بعد ذلك . ومهما يكن من أمر ، فأنا لم أكن أريدها أن تتركني . اقترحت عليها أن نتناول طعام الغداء لدى سيليست . كانت تحب أن تتناول الغداء معي ، ولكن لديها أعمالاً عند المساء . كنا على مقربة من بيتي ، فقلت :

- وداعاً إذن .

وتطلعت إليّ في عينيّ .

- ألا تودّ أن تعرف ماذا يشغلني هذا المساء ؟

كنت أودّ أن أعرف ذلك حقاً ، ولكنه لم يخطر لي أن أسألها . حسبت أنها تحبّ أن تربكني . ولا ريبة أنني ارتبكت ، فقد انفجرت ضاحكة على غير انتظار ، ومالت عليّ ، ومدّت لي شفيتها .

ذهبت وحدي إلى مطعم سيليست . لم أكد أبدأ التهام طعامي حتى جاءت امرأة قصيرة غريبة الطلعة وسألت إن كان في مقدورها الجلوس إلى مائدتي . أكيد أنها كانت تستطيع ذلك . كان لها وجه أشبه بتفاحة ناضجة ، وعينان براقتان ، وتخطو في حركات مترنحة كمن يمشي على سلك مشدود . خلعت معطفها الضيق ، وجلست ، وشرعت تدرس قائمة أسعار الطعام في انتباه مشدود . ثم نادى سيليست وطلبت صنفها المفضل في صوت عجول واضح النبرات لا يخطيء المرء فهم كلماته . وفتحت حقيبتها بانتظار المقبلات ، وأخرجت قطعة ورق وقلماً ، ودوّنت قيمة الفاتورة مقدماً . ثم أغرقت يدها في حقيبتها مرة أخرى ، وأخرجت حافظة نقود تناولت منها المبلغ المطلوب

بالإضافة إلى البقشيش ، ووضعت على غطاء المائدة أمامها .  
جاء النادل بالمقَبَلات ، فالتهمتْها بسرعة فائقة . وأخرجت وهي تنتظر  
الطبق التالي قلماً آخر ، أزرق اللون هذه المرة ، ومجلة البرامج الاذاعية  
للأسبوع المقبل ، وشرعت تؤثر بقلمها تحت جميع مواد البرامج تقريباً . كانت  
المجلة مؤلفة من اثنتي عشرة صفحة ، فجعلت تقرأها في عناية بالغة أثناء  
الطعام . ولما أنهيت طعامي وجدت أنها لا تبرح تؤثر تحت البرامج بذات الحمية  
السابقة . ثم نهضت ، ولبست معطفها في عجلة وحركات دقيقة آلية ، ودلفت  
خارج المطعم في خفة متناهية .

ولما لم يكن لديَّ شيء أفعله تبعته مسافة من الطريق . مشيت على  
الرصيف باستقامة ، دون أن تقف أو تلتفت إلى الوراء ، خطواتها سريعة جداً  
بالمقارنة مع قصرها . كانت خطواتها أسرع من أن أستطيع اللحاق بها ، فما  
أسرع أن أضعت أثرها ، ورجعت في اتجاه البيت . لقد خلّفت تلك «المخلوقة  
الآلية الصغيرة» (كما سميتها في فكري) شيئاً من الأثر في نفسي ، ثم نسيتهما  
سريعاً .

وبينا أنا أستدير صوب باب غرفتي رأيت العجوز سالامانو ، فدعوته إلى  
غرفتي ، وأبلغني أن كلبه ضاع نهائياً . ذهب إلى زريبة الحيوانات للسؤال عنه  
فلم يجده هناك ، وأخبروه أنه ربما سُحق فمات . ولما استفسر ما إذا كان يستفيد  
شيئاً من السؤال عنه في مركز الشرطة أجابوه ان لدى الشرطة أعمالاً أكثر أهمية  
من الاحتفاظ بسجلات للكلاب الشاردة في الشوارع . واقترحت عليه أن  
يحصل على كلب جديد ، فأشار إلى أنه أَلِفَ ذلك الكلب ، وأن الحصول على  
كلب جديد لن ينسيه الذي مات . وكان على حق في ذلك .

كنت أجلس على سريري طاوياً ساقيَّ تحتي ، وجلس سالامانو على مقعد إلى  
جانب النضد ، في مقابلتي ، ناشراً يديه على ركبتيه . كان قد احتفظ بقبعته

الليادية وجعل يتمتع خلف شاربه المصفر المتدلي . وأيت أنه يبحث على الضجر ، ولكنه لم يكن لديّ ما أفعل ، ولم أكن أشعر بالنعاس . وهكذا طرحت عليه عدة أسئلة عن كلبه لمتابعة الحديث - ما هي الفترة التي بقي فيها لديه ، وما شابه ذلك . فأخبرني أنه حصل عليه بعد وفاة زوجته بفترة قصيرة . كان قد تأخر في زواجه كثيراً . وكانت له في صباه رغبة بالعمل في المسرح . وخلال خدمته العسكرية راح يمثل أدواراً في مسارح الجيش ويلعب أدواره بصورة جيدة كما كان الجميع يقولون له . وأخيراً عمل في السكة الحديدية ، ولم يكن نادماً على ذلك لأنه يتقاضى الآن مرتباً تقاعدياً لا بأس به . لم يكن سعيداً مع زوجته ، ولكن كلاً منهما اعتاد على الآخر . وشعر بالوحدة بعد وفاتها . وقد عرض عليه أحد رفاقه في السكة جرواً أنجبته كلبته ، فاتخذته رفيقاً له . واضطر إلى إرضاعه بواسطة الرضاعة أول الأمر . ولما كان الكلب يعيش أقل مما يعيش الانسان فقد راحا يهرمان معاً .

قال سالامانو :

- كان حيواناً شرساً . وكنا نتقاتل بين حين وآخر . ولكنه كان طيباً رغم كل

شيء .

قلت إنه كان من جنس طيب ، فاغتبط العجوز من هذا القول كثيراً . قال : - آه ، كان يجب أن ترى إليه قبل أن يمرض ! كان شعره رائعاً . وكان هذا أجمل مافيه في الحقيقة . وقد بذلت المستحيل لمعالجته . كنت أدلك جسده بالمراهم منذ إصابته بهذا المرض الجلدي كل ليلة . لكن مرضه الحقيقي هو الشيخوخة ، وليس ثمة علاج لمرض الشيخوخة .

تساءلت ، فقال العجوز إنه يحسن به أن يذهب . قلت إنه يستطيع البقاء ، وإني آسف لما حدث للكلب . شكرني . وقال إن أمي كانت تحب كلبه كثيراً . أشار إليها بقوله «أمك المسكينة» . وكان يخشى أن يثقل عليّ موتها كثيراً . ولما

لم أعطه جواباً أضاف في سرعة ونبرة مرتبكة أن بعض الناس في الشارع تلفظوا بأقوال قذرة عني لأنني بعثت أُمي إلى المأوى . ولكنه هو . من دون ريب ، يعرفني تماماً ، ويعرف كم كنت أحبها .

أجبت - ولست أعرف لماذا - أنه يدهشني أن أكون خلّفت مثل هذا الأثر السيء . ولما لم أكن أملك ما يكفي من مال لابقائها هنا بدا لي الأمر طبيعياً أن أبعث بها إلى المأوى . وأضفت :

- وعلى أية حال لم يكن لديها ما تقول لي طوال سنوات ، وكنت أستطيع أن أرى أنها بدأت تكتتب لعدم وجود من يحدثها هنا .  
قال :

- بلى . المرء يجد أصدقاء في المأوى على أية حال .  
نهض ، وأعلن أن الوقت تأخر بالنسبة إليه ويجب أن ينام ، وأضاف إن الحياة ستغدو الآن متعبة قليلاً بالنسبة إليه في هذه الظروف الجديدة . مدّ يده يضافحني لأول مرة منذ أن تعارفنا - لكن في شيء من الخجل على ما تراءى لي - فأحسست بالبشور على جلده . واستدار قبل أن يصل إلى الباب ، ورسم على شفّتيه ابتسامة صغيرة ، وأضاف :

- فلنأمل ألا تتبع الكلاب مرة أخرى هذه الليلة . فأنا أعتقد دائماً أن كلبي هو الذي ينبح ...

عانيت مشقة كبيرة في النهوض صباح الأحد . وجب على ماري أن تهزّ  
كتفي وتناديني . لم نبال بتناول طعام الفطور لأننا نريد أن نسبح باكراً . كنت  
أشعر بصداع خفيف ، فأحسست لسيكارتني الأولى طعماً مرّاً . قالت ماري  
إنني أشبه إنساناً محزوناً يسير في جنازة . وكنت أحسّ في الواقع شيئاً من  
الترهل . وكانت ترتدي ثوباً أبيض وقد أرسلت شعرها . قلت لها إنها تبدو  
فاتنة ، فضحكت في سعادة .

طرقنا باب ريمون في طريقنا ، فأجاب أنه سيلحق بنا في لحظات . هبطنا إلى  
الشارع . ولما كنت لم أفتح نوافذ غرفتي فقد صفعني بريق شمس الصباح في  
عينيّ صفعه قوية .

كانت ماري ترقص من الفرحة ولا تني تردد :  
- يا لليوم الرائع !

أحسستني أكثر ارتياحاً بعد قليل ، وأدركت أنني جائع . أخبرت ماري ،  
فلم تبالي . كانت تحمل كيساً من قماش مشمّع وضعت فيه ثياب استحمامنا  
ومنشفة ، وسمعنا ريمون يغلق الباب . كان يلبس بنطالاً أزرق اللون ، وقميصاً  
أبيض قصير الكمين ، ويضع على رأسه قبعة من قش . لاحظت أن ساعديه  
يزخران بالشعر ، ولكن جلده ناصع البياض تحت ذلك الشعر . وقد أضحكت

قبعة القش ماري . أما أنا فاشمئززت لمن منظره قليلاً . كان يلوح صافي المزاج ، فهو يصفر أثناء هبوطه درجات السلم . حياني قائلاً : «مرحباً ، أيها الفتى العجوز!» . ونادى ماري بلقب «آنسة» .

كنا قد ذهبنا مساء أمس إلى مخفر الشرطة ، وقدمت شهادة لصالح ريمون حول موضوع الفتاة التي خدعته . وهكذا أخذوا سبيله بعد تنبيه شديد . لكنهم لم يمعنوا النظر في إفادتي .

قررنا بعد حديث قصير أن نستقل الباص . كان الشاطئ قريباً ، ولكنه يفضل أن نصل الى هناك في أقرب وقت ممكن . وفيما نحن نخطو صوب موقف الباص لكزني ريمون في مرفقي وطلب إليّ أن أنظر عبر الشارع . رأيت جماعة من العرب يستندون على نافذة بائع التبغ . كانوا يحدقون فينا في صمت على طريقتهم الخاصة - كما لو كنا قطعاً من الحجارة أو أشجاراً مائتة . وهنس لي ريمون أن العربي الثاني إلى اليسار كان «رَجُلُهُ» ، وتراءى لي أنه مضطرب قليلاً . أكد لي أن القضية في حكم المنتهية . وسألت ماري التي لم تفهم شيئاً من أقواله :

- ما الأمر ؟

قلت إن هؤلاء العرب عبر الشارع يريدون بريمون شراً . فأصرت على الذهاب فوراً . وضحك ريمون . وهزّ كتفيه . وقال ان السيدة الشابة على حق . فليس ثمة ضرورة للتباطؤ حيث كنا . وفي منتصف الطريق إلى موقف الباص التفت إلى الورا من فوق كتفه وقال إن العرب لا يتبعوننا . وتطلعت بدوري الى الخلف . كانوا لا يبرحون في مكانهم ، ينظرون بذات اللامبالاة إلى البقعة التي تركناها .

شعرت عندما ركبنا الباص أن ريمون استعاد هدوءه ، وشرع يرسل دعاياته لإضحاك ماري . وشعرت أنها تروق في عينيه ، ولكنها لم تكن تحدّثه على



الاطلاق . كانت تنظر في عينيّ بين لحظة وأخرى ، وتبتسم .

نزلنا في ضاحية مدينة الجزائر . لم يكن الشاطئ بعيداً عن موقف الباص .. يجتاز المرء تلة من الأرض تشرف على البحر ثم تنحدر صوب الرمال . الأرض هنا مغطاة بأحجار صفراء ونبات السوسن البري الملتصع بياضاً تحت زرقة السماء المكتسية بتلك القسوة المعدنية التي ترتديها في الأيام الحارة . وكانت ماري تتسلى بأن تضرب كيسها على الورود فتتشر أوراقها في جميع الاتجاهات . مشينا بين صفين من البيوتات الصغيرة ذات الشرفات الخشبية والحواجز الخضراء أو البيضاء . كان بعضها نصف مختبئ خلف أدغال نبات الطرفاء ، وبعضها الآخر ينهض عريان من الأرض الحجرية . وقبل أن نصل إلى نهاية التلة صار في مقدورنا أن نرى البحر على مرمى البصر ، يضطجع ناعماً مثل المرأة ، وفي المنتأى رأس كبير يبرز فوق انعكاسه الأسود . ودفعاً إلينا من خلال الهواء الهادئ هدير خافت لمحرك زورق ، ورأينا قارب صيد في البعد البعيد يسبح على صدر نعومة البحر بصورة خفية تقريباً .

التقطت ماري بعض أزهار السوسن الصخري . ورأينا ، ونحن نهبط الممر المؤدي إلى البحر ، بعض السباحين الذين انتشروا على الرمال . كان صديق ريمون يملك كوخاً خشبياً صغيراً قرب نهاية الشاطئ ، مؤخرته تستلقي على الصخور ، بينا مقدمته ترتفع على عمود تتوالب الأمواج على جنباتها . قدّمنا ريمون لصديقه ويدعى ماسون . رجل طويل العود ، عريض الكتفين والبنية ، زوجته ممتلئة الجسم ، صغيرة القامة ، دائمة المرح ، ذات نبرة باريسية .

أخبرنا ماسون على الفور أن نعتبر أنفسنا في بيتنا . قال إنه خرج للصيد في بكور الصباح ، وأن غداً نأكل سمك مقلو . هنأته على كوخه الصغير ، فأجابني أنه يقضي على الدوام نهايات الأسبوع والأعياد فيه .

أضاف قائلاً :

- أنا وزوجتي على أتمّ وفاق .

نظرت إليها ، فرأيت أنها تفاهمت وماري تماماً ، فهما تضحكان وتثرثران .  
ففكرت ، ربما للمرة الأولى ، أنني يمكن أن أتزوجها جدياً .

كان ماسون يريد أن يسبح على الفور ، لكن امرأته وريمون رفضا الذهاب .  
وهكذا انطلقا ثلاثتنا ، ماري وماسون وأنا ، إلى الشاطئ . ارتقت ماري في الماء  
حالاً ، بينما تماهلت وماسون قليلاً . كان يتحدث في بطة ، ولحظت أنه اعتاد أن  
يقول خلال جمل أحاديثه «وبالاضافة إلى هذا» - حتى ولو لم يكن يضيف في  
الواقع أي شيء إلى جملة الأولى . وقال لي عندما تكلمنا عن ماري :

- انها تأخذ بالألباب ، وبالإضافة إلى هذا فهي جذابة .

وسرعان ما كففت عن التفكير في تعبيره هذا . كنت أستدفيء بأشعة  
الشمس ، هذه الأشعة التي أدركت أنها تفعمني لذة . وكان الرمل يسخن تحت  
الأقدام ، فأخرت هبوطي إلى الماء دقيقة أو دقيقتين رغم شوقي إلى ذلك . قلت  
لماسون أخيراً :

- هل نهبط ؟

وألقيت نفسي . خطا ماسون إلى الماء في هدوء ، وبدأ يسبح عندما تعثر فيه .  
كان يسبح محركاً ذراعيه ، وعلى مهلة ، فتركته ولحقت بماري . كان الماء بارداً ،  
وكنت سعيداً . سبحنا مبتعدين ، ماري وأنا ، جنباً إلى جنب . كنا نحس أننا  
متوافقان في حركاتنا وسرورنا . وكنا نستمتع بكل لحظة تمرّ .

سبحنا مرة إلى عرض البحر ، واضطجعنا على ظهرينا . وبينما أنا أهدق في  
السما كنت أشعر بالشمس تزيع عن وجهي آخر وشاحات الماء المالح التي  
تسيل في شفتي وعلى وجنتي . ورأينا ماسون يسبح عائداً إلى الشاطئ ويرتمي  
على الرمل تحت الشمس . كان يبدو من البعيد ضخماً أشبه بحوت جانح .

واقترحت ماري أن نسبح وراء بعضنا . فانطلقت أمامي ، فوضعت ذراعي على خصرها من الخلف ؛ وبينما هي تجرني إلى الأمام بضربات ذراعيها ، شرعت أنا أضرب الماء برجلي من ورائها .

بقي صدى تلك الضربات الصغيرة في الماء في أذني فترة طويلة حتى بدأت أتعب منه . تركت ماري وسبحت عائداً وأنا أتنفس أنفاساً عميقة ممدودة . وما أن وصلت إلى الشاطئ حتى استلقيت على بطني إلى جانب ماسون وأرحت وجهي على الرمال . قلت له إن السباحة « كانت لذيذة » ، فوافقني على ذلك . وسرعان ما رجعت ماري . رفعت رأسي لأراها وهي تقترب . كانت تتألق بماء البحر الملح وتمسك شعرها إلى الخلف . ثم استلقت إلى جانبي فشعرت بتوق إلى النوم وقد خدرتني حرارة جسدينا وحرارة الشمس .

هزت ماري ذراعي بعد قليل وأخبرتني أن ماسون رجع إلى كوخه . لقد حان وقت الطعام . نهضت حالاً لأنني كنت أشعر بالجوع ، فقالت لي ماري إنني لم أقبلها منذ الصباح قبله واحدة . وكان هذا صحيحاً - رغم أنني أردت أن أفعل ذلك عدة مرات . قالت :

- فلنرجع الى الماء مرة أخرى .

ركضنا إلى البحر وهوينا فوق الموجات المتدفقة لحظات . ثم سبحنا عدة أمتار ، فأحسست بذراعيها تلتفان حولي وتجذبانني إليها . وشعرت بساقيها تحتضنان ساقي ، فتخدرت أعصابي .

عندما رجعنا كان ماسون يقف على سلم كوخه ينادينا . قلت له إن الجوع ينهشني ، فاستدار إلى زوجته فوراً وأخبرها أنني أروق في غيبيته . كان الخبز رائعاً . والتهمت حصتي من السمك . وقدما بعد ذلك لحماً مشوياً وبطاطا . لم ينبس أحداً بحرف أثناء الطعام . شرب ماسون كمية كبيرة من الخمر ، وظل يملأ لي قدحي كلما فرغ . ولما أديررت القهوة كان رأسي قد ثقل ، فشرعت أدخن

لفافة بعد أخرى . وتدارسنا ، ماسون وريمون وأنا ، موضوع قضاء شهر آب بكامله على الشاطئ ، مشتركين في مجموع النفقات .  
قالت ماري فجأة :

- اسمعوا ! هل تعرفون كم الساعة الآن ؟ إنها الحادية عشرة والنصف فقط !

سُدهُنّا جميعاً ، وقال ماسون إننا أكلنا باكراً جداً ، ولكن ذلك طبيعي لأن المرء يأكل عندما يجوع .

ضحكت ماري لهذا الكلام ، ولا أعرف السبب في ذلك . أعتقد أنها شربت كثيراً .

سألني ماسون عندها إن كنت أرغب في التنزه معه على الشاطئ .

قال :

- ان امرأتي تغفو قليلاً بعد الظهر دائماً . وأنا لا أحب هذا . ما أحتاج إليه هو نزهة قصيرة . وأنا أقول لها دائماً إن المشي يفيد صحتها كثيراً . ولكن لها رأيها الخاص بعد كل شيء .

أعلنت ماري أنها ستبقى لمساعدة السيدة ماسون في غسل الصحون . فابتسمت هذه وقالت إن أول عمل يجب أن ينجز هو إخراجنا جميعاً من الكوخ . وهكذا خرج ثلاثتنا .

كان الضوء يساقط عمودياً تقريباً ، وهج البحر يعمي الأبصار ، والشاطئ مهجوراً تماماً . وكان المرء يسمع صدى الملاحق والسكاكين والصحون يدف من الأكواخ الصغيرة المتراصة على سيف البحر . وكانت الحرارة تنبثق من الصخور فيعجز المرء عن التنفس .

بدأ ريمون وماسون يتحدثان عن أشياء وأشخاص لم أكن أعرفهم . فهمت أنها كانا متعارفين منذ زمن طويل ، حتى أنها عاشا معاً فترة من الوقت .

وتوجهنا صوب حافة الماء ، وسرنا على طول البحر . كانت في الأحايين تهجم  
موجة أطول من سابقتها فتغسل صنادلنا . ولم أكن أشغل تفكيري في شيء ،  
فالشمس الضاربة على رأسي عمودياً تخدرني فأشعر بالنعاس .  
في تلك اللحظة قال ريمون شيئاً لماسون لم أسمعه جيداً . ولكنني لمحت في  
الوقت ذاته عربيين في ثوبين قطنيين أزرقين عند الطرف الآخر من الشاطئ ،  
يتجهان صوبنا . التفت إلى ريمون فأومأ برأسه ، قائلاً :  
- هذا هو !

تابعنا سيرنا باستقامة . وتساءل ماسون كيف استطاعا تعقب أثرنا . خطر  
لي أنها شاهدانا نركب الباص ، كما شاهدنا حقيبة ماري المشمعة ، ولكنني لم  
أقل شيئاً .

اقرب العريان منا رغم سيرهما البطيء . ولم نبدل نحن خطوتنا ، ولكن  
ريمون قال :

- أصغيا ! إذا حدث شجار فخذ أنت ، يا ماسون ، الشخص الآخر . أما  
أنا فسأهتم بالرجل الذي يتأثرني . وأنت ، يا ميرسو ، ابق جانبا لمساعدتنا إن  
جاء شخص آخر ، وعليك به .

قلت :

- حسناً .

ووضع ماسون يديه في جيبيه .

كانت الرمال حارة كالنار ، وأقسم أنها كانت تتوهج باللون الأحمر . المسافة  
بيننا وبين العرييين تزداد تقلصاً . توقفا على بعد عدة خطوات منا . فتمهلت أنا  
وماسون ، بينما أكمل ريمون طريقه في اتجاه رجله . لم أسمع ما قال ، ولكنني  
رأيت العربي يخفض رأسه ، وكأنه سيضربه على صدره . وثب ريمون إلى الوراء  
فوراً ، ونادى ماسون لمساعدته . فانطلق ماسون إلى الرجل الآخر وضربه

مرتين بكل قوته . وقع الفتى في اليمّ وبقي هنالك عدة لحظات والفقايع تصاعد على سطح الماء حول رأسه . في تلك الأثناء كان ريمون يضرب الرجل الآخر الذي راح وجهه ينزف دماً . حدّق في من فوق كتفه ، وصاح :  
- راقب ما يجري فقط ! أنا لم أنته منه بعد !  
صحت :

- انتبه ! انه يحمل سكيناً .

صحت بعد فوات الأوان . فقد شطب الرجل ذراع ريمون وفمه . وثب ماسون إلى الأمام . ونهض العربي الآخر من الماء وانتصب خلف الذي يحمل السكين . لم نجرو على الحركة . تراجع العربيان على مهلة ، دون أن نتحرك صوبهما خوفاً من السكين ، ودون أن يرفعا عيونهما عنا . استدارا عندما وصلا إلى مسافة مأمونة ولاذا بالفرار . بقينا جامدين ، والشمس تنصب علينا من فوق . كان الدم ينزف من ذراع ريمون المجروحة جرحاً بليغاً فوق المرفق . قال ماسون إن ثمة طبيباً يقضي أيام الأحاد على الشاطئ . فقال ريمون :  
- حسناً . فلنذهب إليه مباشرة .

كانت الكلمات تخرج من فمه في صعوبة ، فالدّم يصعد فقاقيع في فمه من جرحه الآخر .

أسدناه وساعدناه في العودة إلى الكوخ . وهناك قال لنا إن الجروح سطحية وإن في مقدوره أن يمشي إلى الطبيب . شحب وجه ماري ، وبكت السيدة ماسون .

ذهب ماسون وريمون إلى الطبيب وبقيت في الكوخ أشرح الأمور للمرأتين . كان ذلك الشرح يزعجني ، فصمتُ وشرعت أدخن ، وأنا أحدّق في البحر . رجع ريمون برفقة ماسون في حدود الساعة الواحدة والنصف . ضمّد ذراعه ووضع شريطة طبية على زاوية فمه . وقد أكّد له الطبيب أن الإصابة بسيطة ،

ولكنه بدا كتيب الطلعة . وحاول ماسون أن يضحكه فما أفلح .  
قال ريمون إنه سيذهب في جولة على الشاطئ . فسألته إلى أين ينتوي  
الذهاب ، فغمغم قائلاً إنه «يود أن يستنشق الهواء» . وقلت وماسون عندها أننا  
سنرافقه ، ولكنه غضب وأمرنا ألا نتدخل في شؤونه . وأعلن ماسون أنه يجب  
ألا نصرّ على ذلك طالما أنه لا يريدنا أن نرافقه . ولكنني لحقت به فور  
خروجه .

الجو أشبه بالفرن خارجاً ، والشمس تتكسر شظايا من نار على الرمال  
والبحر . مشينا طويلاً ، يراودني الشعور أن ريمون يعرف إلى أين يتجه ، ولكنني  
كنت على خطأ .

وصلنا عند الطرف الآخر من الشاطئ إلى جدول صغير يمر بين الرمال بعد  
أن يتدفق من خلف صخرة كبيرة . هنالك التقينا العربيين من جديد ، وقد  
استلقيا على الرمال بثيابهما الزرقاء . كان يبدو عليهما الهدوء ، كمن لا يحمل  
علينا أي حقد على الإطلاق ، كما أن أحداً لم يتحرك من مكانه لدى اقترابنا .  
كان الرجل الذي ضرب ريمون يرنو إليه دون أن يقول شيئاً . وكان الرجل  
الآخر ينفخ في قصبة صغيرة تبعث ثلاث نغمات يتيمات يرددها بلا انقطاع ، وهو  
يراقبنا من زاوية عينه .

لم يتحرك أحد طوال فترة . الشمس تغمر كل شيء ، والصمت مطبق إلا  
من صوت خرير الجدول وتلك النغمات الثلاث القصار . وضع ريمون يده في  
جيب مسدسه ، ولكن العربيين لم يتحركا . ولحظت أن العربي الذي ينفخ في  
مزمار القصب تباعدت أصابع قدميه الكبيرة عن بعضها في قدمه .

خاطبني ريمون قائلاً دون أن يرفع عينيه عن غريمه :

- هل أطلق عليه رصاصة ؟

فكرت حالاً . إذا قلت له ألا يفعل ذلك نظراً لحاله النفسية ، فقد يتحمس



ويطلق النار حتماً . واكتفيت بأن أجبتة بما خطر لي على الفور :  
- إنه لم يكلمك بعد . من الحماقة أن تطلق النار عليه هكذا ، دون إثارة .  
خيم الصمت من جديد طوال لحظات ، فلم نكن نسمع غير خرير الجدول  
ونغمات الناي تسبح في الهواء الساكن الحار .  
قال ريمون أخيراً :

- حسناً . اذا كان الأمر كذلك فسأشتمه ، وحين يردُّ عليّ أقتله .  
قلت :

- أجل . لكنه ان لم يخرج سكينه فلا تطلق النار .  
وبدأ ريمون يتململ . تابع العربي صاحب المزمار النفخ في قصبته ، والاثنا  
يتأملان كل حركة تصدر عنا .  
قلت لريمون :

- أصغ . صارعه مصارعة ، واعطني مسدسك . فإذا شرع الآخر في إثارة  
المشاكل وأخرج سكينه ، فسأطلق عليه النار .  
التمعت الشمس على مسدس ريمون وهو يناولنيه . لكن أحداً لم يأت  
حركة ، كما لو أن كل شيء انغلق علينا ومنعنا عن الاتيان بأي حركة . كنا  
نراقب بعضنا بعضاً ، دون أن نخفض عيوننا . وبدا العالم بأسره قد جمد على  
هذه المساحة الضيقة من الرمال بين الشمس والبحر ، وصمت الناي والجدول .  
وخطر لي عندئذ أنه يمكن أن أطلق النار ، أو لا أطلقها - وستكون النتيجة  
واحدة تماماً .

ولكن العربيين اختفيا على حين غرة . تسللا مثل حرباوين تحت الصخر .  
وهكذا استدرت وريمون ورجعنا أدراجنا . ارتسمت السعادة على ملامحه ،  
وشرع يتحدث عن الباص الذي سنستقله في طريق العودة .  
وصلنا إلى الكوخ فهرول ريمون يصعد درجات السلم على الفور ، ولكنني

وقفت عند أول درجة منه . كان الضوء يضرب على رأسي ، ولم أكن أحتمل صعود هذه الدرجات لأتحدث مرة أخرى إلى المرأتين . كان الحر شديداً فيشق عليّ البقاء حيث وقفت ، تحت ذلك الطوفان من الضوء الخاطف للأبصار المنصب من قمة السماء . أن أبقى أو أن أتحرك ذاهباً - كان الأمر سيان . رجعت بعد لحظة إلى الشاطئ ، وشرعت أسير على الرمال .

كان هنالك ذلك الوهج الأحمر ذاته منبسطاً على مدّ البصر ، وموجات صغيرة تصفع الرمل الحار في تتابعات صغيرة لاهثة . وفيما أنا أتوجه صوب الصخور في نهاية الشاطئ رحّت أشعر بصدغيّ ينتفخان تحت انصباب الضوء . كان الضوء يتركز عليّ في محاولة لمنعي من التقدم . وصرت أطحن أسناني كلما صفعتني موجة حارة على جبهتي ، وأجمع قبضتيّ في جيبي سروالي ، وأضغط على كل عضلة لأطرد الشمس وذلك الدوخان المظلم المنهال عليّ . وعند كل سيف أشعة ينبثق من صدفة أو زجاجة محطمة على الرمال يتشنج فكّي بقسوة . إن أحداً لا يريد ضربني ، ولذلك تابعت السير باستقامة .

تبدّت تلك الصخرة الصغيرة السوداء بعيداً على الشاطئ محاطة بهالة من الضوء الباهر ورذاذ البحر ، ولكنني كنت أفكر في ذلك الجدول البارد النقي خلفها ، وأشتاق إلى أن أسمع خرير الماء المتدفق ، والتخلص من ذلك الضوء ، ورؤية المرأتين الباكيتين ، والتوتر والجهد - وأن أسترد بحيرة الظلال إلى جانب الصخرة وهدوئها البارد !

لم أكد أخطو مقرباً حتى رأيت غريم ريمون العربي رجّع أذراجه . كان وحيداً هذه المرة ، مستلقياً على جنبه ، ويده خلف رأسه ، ورأسه مغمورة بظل الصخرة ، بينما الشمس تغمر كامل جسده . وكان المرء يرى ثوبه كله يرشح بالحرارة . بوغت حقاً . فقد تصورت أن القضية انتهت ، فجنّت إلى هنا دون أن أفكر في شيء على الإطلاق .

وما أن رأيي العربي حتى نهض قليلاً ، وامتدت يده إلى جيبه . طبعني أنني مددت يدي أبحث عن مسدس ريمون في جيب معطفي . ثم ترك العربي نفسه يفرق من جديد ، لكن دون أن يخرج يده من جيبه . كنت على مسافة منه ، حوالي عشرة أمتار ، وكنت أحذر نظرتة السوداء من بين أهدابه نصف المغلقة ، فتروح صورته تتراقص أمام عيني . كان صوت الأمواج متكاسلاً ، واهناً ، أكثر مما هو عند الظهيرة . بيد أن الضوء لم يتغير . فهو ينصبُّ بوحشية مثله قبلاً على طول امتداد الرمال المنتهية عند الصخرة . ويبدو أن الشمس لم تتقدم على الإطلاق طوال ساعتين ، فهي مسترخية في بحر من الفولاذ المنصهر . ومُرت على البعد باخرة على خط الأفق . كنت أستطيع أن أميز من طرف عيني تلك الرقعة الصغيرة السوداء المتحركة ، بينا نظري كله مثبت على العربي .

'خطر لي أن أستدير ، وأبتعد ، وأكف عن التفكير في هذا الموضوع . ولكن الشاطئ بأسره ، السابح في موج من الحرارة ، راح يضغط على ظهري . خطوات قليلاً في اتجاه الجدول . فلم يتحرك العربي . إن مسافة لا تبرح تفصل بيننا ، على أية حال . وبدأ لي ، ربما بسبب من الظلال على وجهه ، أنه يكشف في وجهي .

انتظرت . وبدأت الحرارة تشوي وجنتي ، وقطرات من العرق تتجمع في حاجبي . إنها ذات الحرارة التي شعرتُ بها يوم دفن أمي ، وذات الأحاسيس التي مُرت بي - وخاصة في جبهتي ، حيث كل عرق ينفجر تحت الجلد . لم أعد أحتمل ذلك على الإطلاق ، فخطوات أخرى إلى الأمام . كنت أعرف أن ذلك حماقة مني ، فأنا لن أهرب من الشمس إن خطوات خطوة إلى الأمام . ولكنني فعلت ذلك ، خطوة واحدة ، إلى الأمام . فسحب العربي سكينه عند ذلك ، ورفعها في وجهي ، في وجه ضوء الشمس . انزلقت حزمة من الضوء على طرف الفولاذ ، فشعرت كما لو أن شفرة حادة

طويلة تضربني في جبيني . وفي اللحظة ذاتها تدفق العرق الغزير الذي تجمّع  
عند حاجبي وانزلق في عينيّ ، فغطاهما بوشاح دافئ من الضباب . غشيتُ  
عينايّ تحت برقع من الدموع والعبرات : لم أكن أشعر سوى بصنوج الشمس  
تضرب صدغي ، وتلك الشفرة اللماعة المتضوّئة من السكين تقرض أهدابي  
وتحفر في كرتي عينيّ .

وراح كل شيء يترنح أمام عيني ، ودفّت من البحر لفحة ملتهبة ، وانشقتُ  
السما إلى نصفين ، من طرفها إلى طرفها ، وأغدقت صحيفة متسعة من اللهب  
من قلب ذلك الشق . وغدت كل عضلة في جسدي أشبه بنابض فولاذي ،  
فضغطت يدي على المسدس . استجاب المقداح ، وهددت يدي بطن الخشب  
الأملس . وهكذا ، في ملء ذلك الصوت الصاخب الذي يصمُّ الآذان ، بدأ كل  
شيء . مسحت العرق وستار الضوء . وعرفت أنني هدمت توازن النهار ، وهدوء  
شاطيء رحب كنت سعيداً على رماله . ولكنني أطلقت أربع طلقات أخرى على  
جسد لا حياة فيه ، فلم تخلف عليه أي أثر مرئي . كانت كل طلقة ناجحة  
عبارة عن طرقة صاخبة مشؤومة أخرى على باب دماري ..

## القسم الثاني

١

استجوبت عدة مرات بعد توقيفي مباشرة . ولكنها كانت استجابات شكلية لمعرفة هويتي وما شابه ذلك . في الاستجواب الأول الذي جرى في مخفر الشرطة خيل إليّ أن أحداً لا يبالي بقضيتي . ولكنني عندما مثلت أمام قاضي التحقيق بعد أسبوع كامل لاحظت أنه نظر إليّ في فضول مركّز . ولكنه بدأ عمله ، أول الأمر ، كالأخرين فاستفسر عن اسمي ، وعنواني ، ومهنتي ، وتاريخ ولادتي ومكانها . ثم سألني ما إذا كنت اخترت محامياً للدفاع عني . فأجبت نفياً . أنا لم أفكر في ذلك ، وسألته ما إذا كان ضرورياً أن أفعله فأجاب :

- لم تسأل هذا السؤال ؟

أجبت أنني أرى قضيتي بسيطة جداً . فابتسم . قال :

- حسناً . قد تبدو لك على هذا القرار . ولكننا يجب أن نراعي نصوص

القانون ، فإذا لم تختَر محامياً فلسوف تندب المحكمة واحداً عنك .

خطر لي أنه تدبير جميل أن تعتمد السلطات إلى البحث في مثل هذه التفاصيل ، وأخبرته بذلك . أوما برأسه ، ووافق على أن القانون ينصُّ على وجوب هذا الأمر .

لم آخذ الموضوع على محمل الجدّ أول الأمر . كانت الغرفة التي استقبلني

فيها تشبه غرفة جلوس عادية ، ذات ستائر على نوافذها ، ومصباح وحيد على منضدتها ، يساقط ضوءه على مقعد مريح أجلسني عليه ، وبقي وجهه هوني الظلال .

قرأت وصفاً مشابهاً لذلك في الكتب ، فبدأ لي الأمر كله كما لو كان لعبة . ونظرت إليه بعد محادثتنا . كان رجلاً طويلاً ملامحه حادة ، وعينه زرقاوان عميقتان ، وشاربه كبير أشهب كث ، وشعره أبيض تقريباً ، فبدأ لي رفيع الثقافة ، وبالأجمال جذاباً . وكان ثمة أمر وحيد شاذ فيه : فقد كان فمه يتشنج ببشاعة بين فترة وأخرى ، ولكنها أشبه بتشنجة عصبية . وعندما غادرته كنت على وشك أن أمد له يدي وأقول «وداعاً» ، ولكنني سرعان ما تذكرت أنني قتلت رجلاً .

في اليوم التالي جاء محام إلى زنزانتي . كان رجلاً قصيراً ، سميناً ، صغير السن ، شعره أسود مصقول ، يلبس رغم الحر الشديد (وكنت أرتدي قميصاً قصير الكمين) بزة سوداء ، وياقة منشاة ، وربطة عنق مبهرجة ذات خطوط عريضة سوداء وبيضاء . وبعد أن وضع محفظته على سريري قدّم نفسه لي ، وأضاف أنه درس إضبارة قضيتي دراسة مليّة . وكان يرى أنها في حاجة إلى معالجة حذرة ، ولكنه لا يشك على الإطلاق في إنقاذي إذا أنا عملت بنصائحه . فشكرته ، فأجاب :

- حسناً . فلنبحث الموضوع ملياً .

جلس على السرير ، وقال إنهم يقومون بتحريرات عن حياتي الخاصة . وعلموا أن أمي ماتت منذ أمد قريب في المأوى . وجرى تحقيق في مارينغو وفهم رجال الشرطة أنني أظهرت كثيراً من «قساوة القلب» في جنازة أمي . قال المحامي :

- يجب أن تدرك أنني لا أتلذذ بالاستفسار منك عن هذا الموضوع . ولكن

ذلك هام جداً . وما لم أجد حجة أرد بها تهمة «قساوة القلب» فلسوف يرهقني الدفاع عنك . ههنا ، وههنا فقط تستطيع وحدك أن تساعدني .  
وسألني إن كنت شعرت بالحزن في «تلك المناسبة الأليمة» . أدهشني السؤال كثيراً ، فأنا أجد كثيراً من الارتباك شخصياً قبل أن أستطيع أن أطرح مثله على مخلوق آخر .

أجبتة أنني فقدت في الأعوام الأخيرة عادة مراقبة أحاسيسي ، وأنه يصعب عليّ أن أجيب عن سؤاله . وأستطيع أن أقول صادقاً إنني كنت مغرماً بالذات - لكن ذلك لم يكن يعني شيئاً . وأضفت أن جميع الأشخاص العاديين تمنوا أحياناً ، في شوق أو لا شوق ، موت أولئك الذين يحبونهم .

هنا بتر المحامي حديثي ، وبدأ عليه اضطراب كبير :  
- ينبغي أن تعذني ألا تقول مثل هذا الكلام في المحكمة . أو أمام قاضي التحقيق .

فَوَعَدْتُ لأرضيه . ولكنني شرحت له أن حاجتي الجسدية تتغلب أحياناً على عواطفني . يوم دفنت أُمِّي مثلاً كنت متعباً ونصف نائم . فلم أنتبه إلى ما كان يحدث . ولكنني كنت أستطيع أن أؤكد له شيئاً واحداً : هو أنني كنت أفضل لو أن أُمِّي لم تمت .

بدا الامتناع على المحامي . ونبر في جفوة :  
- هذا لا يكفي .

فكّر برهة ، وسألني ما إذا كان يستطيع أن يقول إنني كنت في ذلك اليوم قد سيطرت على أعصابي . قلت :  
- كلا . لن يكون هذا صحيحاً .

نظر إليّ نظرة غريبة كما لو كنت أوحى له بالاشمئزاز . ثم أخبرني ، في شيء من العداء تقريباً ، أن المحكمة في جميع الأحوال ستسمع أقوال مدير المأوى

وبعض معاونيه كشهود . وختم حديثه قائلاً :  
- وقد يكون ذلك انعطافة سيئة جداً .

ولما قلت إن وفاة أمي لا علاقة لها بالتهمة الموجهة ضدي أجبني أن هذه الملاحظة تدل على جهلي بنصوص القوانين .

تركني بعد لحظات وقد بدا غاضباً . تمنيت لو أنه بقي عندي فترة أطول ، ولو أنني أستطيع أن أشرح له أنني أحتاج إلى عطفه ، لا ليدافع عني بمزيد من القوة بل بطريقة طبيعية إذا صحَّ التعبير . وكنت أرى أنني أثرت أعصابه . لم يكن يستطيع أن يفهمني ؛ وقد حقد عليّ قليلاً من دون ريب . مرة أو مرتين خطر لي أن أؤكد له أنني كنت كسائر الناس ، شخصاً عادياً كسائر الناس . ولكن هذا كله لم يكن يصل بنا إلى نتيجة ، فعدلت عن ذلك - بدافع الكسل أكثر من أي شيء آخر .

اقتادوني بعد ذلك إلى مكتب قاضي التحقيق مرة أخرى . كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، وغرفته هذه المرة تغصّ بالضوء . كان ثمة ستارة شفافة على النافذة . وكانت الغرفة حارة جداً .

دعاني إلى الجلوس ، ثم أبلغني في كثير من الأدب أنه «نظراً لظروف خاصة» لم يستطع محامي أن يحضر . وأضاف أن ذلك يسمح لي ألا أجب عن أسئلته إلى حين حضور المحامي .

أجبت أنني أستطيع أن أجب دون محام . فضغط على زر كهربائي على منضدته فتقدم كاتب شاب جلس وراء ظهري . ثم استرخى كلانا - قاضي التحقيق وأنا - في مقعدينا وبدأ الاستجواب . قال إنهم يصفونني بأنني إنسان صموت ، مغلق على نفسه ، وأنه يجب أن يعرف رأيي في ذلك . فأجبت :  
- حسناً ، نادراً ما يكون لدي شيء كثير أقوله . فطبيعي بعد ذلك أن أحتفظ بفتي مغلقاً .



فابتسم مثلما ابتسم في المرة الأولى ، واعترف بأن ذلك خير الأسباب .  
وأضاف :

- وعلى أية حال ، فلا أهمية لذلك على الإطلاق .  
انحنى إلى الأمام بعد لحظات فجأة ، وحدثني عيني ، وقال ، وقد رفع نبرة  
صوته قليلاً :

- إن ما يهمني حقاً هو - أنت !  
لم أفهم جيداً ما كان يقصد ، فما أعطيته جواباً .  
تابع يقول :

- ثمة أشياء عديدة تحيرني في جريمتك . أنا واثق أنك ستساعدني على  
فهمها .

ولما أجبته أن الأمر في غاية السهولة سألتني أن أعطيه وصفاً مفصلاً لما فعلت  
ذلك النهار . كنت رويت له ذلك في مقابلتنا الأولى - ولكن بصورة مختصرة  
تقريباً - ريمون ، والشاطبي ، وسباحتنا ، والشجار ، ثم الشاطبي مرة أخرى ،  
والطلقات الخمس التي أطلقت . كررت ذلك من جديد ، فكان يقول بعد كل  
جملة : «حسناً ، حسناً» ، ويوميء برأسه . ولما وصفت له الجسد المستلقي على  
الرمال أولاً برأسه إيماءة معبرة ، وقال : «حسناً» . وقد أتعبني أن أعيد القصة  
ذاتها ، وشعرت أنه لم يسبق لي أن تكلمت بهذا المقدار من قبل قط .  
نهض بعد صمت قصير وقال إنه يريد أن يساعدني . فأنا أثير اهتمامه ،  
ولسوف يفعل شيئاً من أجلي في محنتي بعون الله . ولكنه مضطر ، قبل ذلك ،  
إلى إلقاء عدة أسئلة أخرى .

بدأ حديثه بأن سألتني باقتضاب إن كنت أحببت أمي .  
أجبت :

- أجل . مثلما يحب الآخرون أمهاتهم .

ولا ريب أن الكاتب الذي يجلس وراء ظهري يضرب على الآلة الكاتبة بانتظام أخطأ الآن ، فقد سمعته يصلح آله ويعيد ضرب الكلام الذي به تفوهت .

وسألني القاضي سؤالاً آخر من دون أي منطق ظاهر :

- لماذا أطلقت خمس طلقات تباعاً ؟

فكرت قليلاً ، ثم شرحت أنها لم تكن تباعاً . فقد أطلقت أول طلقة ، ثم أتبعتها بعد فترة بأربع طلقات أخرى .

- لماذا انتظرت بين الطلقة الأولى والطلقة الثانية ؟

رأيت المشهد كله يخطر أمام عيني مرة أخرى ، وهج الشاطيء الأحمر ، والإحساس بتلك الأنفاس اللاهبة على وجنتي - ولكنني لم أجب هذه المرة بشيء .

خلال فترة الصمت التي أعقبت ذلك ظلّ قاضي التحقيق مهتاجاً ، يحلل شعره بأصابعه ، فينهض عن كرسيه ثم يعود فيجلس عليه من جديد . وأخيراً زرع مرفقيه على المنضدة ، وانحنى نحوي قليلاً وعلى وجهه تعبير غريب .

- لكن لماذا ، لماذا تابعت إطلاق النار على جسد رجل مسجى على الأرض ؟

وهنا أيضاً لم أجد جواباً عن سؤاله .

أمراً القاضي يده على جبهته ، وكرّر في نبرة مختلفة :

- أسألك لماذا ؟ وأصرّ على أن تجيبني .

فظللت معتصماً بالصمت .

نهض فجأة ، ومشى إلى خزانة إضبارات تنتصب على الجدار المقابل ، وفتح درجاً هناك ، وتناول منه مسيحاً مصلوباً من الفضة راح يورجحه وهو يعود إلى منضدته .

- هل تعرف هذا من يكون ؟  
كانت طبقة صوته قد تغيرت تماماً . إنها تعجّ بالعاطفة .

أجبت :  
- أكيد أنني أعرفه .

أجفله ذلك . وبدأ يتحدث في سرعة عظيمة . قال لي إنه يؤمن بالله ، وإن أكثر الخطاة سوءاً يمكن أن ينالوا صفحه رَغْرانَه . ولكنه ينبغي أن يتوب أولاً ، وأن يصير أشبه بالطفل الصغير ، وأن يحمل قلباً بسيطاً صادقاً يتقبل الأدلة والمحجج التي يمكن أن تقنعه . كان ينحني على المنضدة يحرك صليبه أمام عيني .

والحقيقة أنني وجدت صعوبة بالغة في تتبع ملحوظاته ، أولاً لأن المكتب كان خائفاً وذبابات كبيرة تؤزُّ هنا وهناك وتقف على وجنتي ، وثانياً لأن حديثه يخيفني . أكيد أنني تحققت أن من السخف أن أشعر بذلك ، لأنني أنا ، بعد كل شيء ، كنتُ مجرماً . وعلى أية حال ، فقد بذلت جهدي وهو يتحدث أن أفهم مغزى كلماته ، فتبين لي أن ثمة نقطة واحدة في اعترافي تحتاج إلى إيضاح - ألا وهي كوني انتظرت لأطلق طلقة المسدس للمرة الثانية . أما الباقي فكان جيداً ، لكنه لم يكن يفهم هذا .

بدأت أقول له إنه مخطيء في إصراره على هذه الناحية . فهذه النقطة لم تكن ذات أهمية كبرى . ولكنه قاطعني قبل أن أنطق بهذه الكلمات ، وشرع يسألني في حماسة ما إذا كنت أؤمن بالله . ولما أجبته بالنفي ترامى ساخطاً في كرسيه .

قال إن ذلك مستحيل ، وإن جميع الناس يؤمنون بالله حتى الذين يتجنبونه . وكان واثقاً من ذلك تماماً . ولو ارتاب به يوماً لفقدت حياته كل معنى .

سأل ساخطاً :

- هل تريد أن تكون حياتي عديمة المعنى ؟  
لم أستطع أن أفهم علاقة رغباتي في ذلك ، وقلت له هذا .  
بينما أنا أخاطبه دسّ المصلوب مرة أخرى تحت أنفي ، وصاح :  
- أنا ، على أية حال ، مسيحي . وألتمس منه أن يغفر لك خطاياك . أيها  
الرجل المسكين الفتى ، كيف تستطيع ألا تؤمن أنه تعذب من أجلك ؟  
أدركت أنه كان يرفع الكلفة ما بيننا عندما قال : «أيها الرجل المسكين  
الفتى» - ولكنني كنت تعبت من ذلك . وكانت حرارة الغرفة تزداد شيئاً فشيئاً .  
ادعيت أنني أوافق على رأيه مثلما أفعل دائماً عندما أحب أن أتخلص من  
شخص يزعجني حديثه . فأضأ وجهه ، الأمر الذي شدهني .  
- أنت ترى ! أنت ترى ! ألا تريد أن تعترف الآن أنك تؤمن وتضع ثقتك  
فيه ؟

لا ريب أنني هزرت رأسي مرة أخرى ، لأنه غرق في مقعده مترهلاً مكتئباً .  
خيم الصمت برهة كان الكاتب خلالها ينهي ضرب آخر جملة من الحديث  
الذي دار بيننا . ثم حملق فيّ في انتباه وشيء من الحزن .  
قال في نبرة خافتة :

- ابداً لم أعرف في حياتي كلها نفساً معذبة كنفسك . فالمجرمون الذين  
مروا أمامي حتى الآن كانوا يبكون عندما يشاهدون رمز آلام سيدنا المسيح .  
كنت على أهبة أن أرد عليه قائلاً إنهم كانوا مجرمين . ولكنني فكرت أنني  
أنا أيضاً ، غدوت مثلهم . وكانت هذه فكرة لم أستطع تقبلها .  
نهض القاضي دلالة على أن الاستجواب انتهى . وطرح عليّ ، بالنبرة المتعبة  
ذاتها ، سؤاله الأخير : هل أنا نادم على ما اقترفت يدي ؟  
فكرت قليلاً ، وقلت إن ما أشعر به هو نوع من الإزعاج أكثر منه نوع من

الندم - لم أستطع أن أجد كلمة أفضل من هذه . وبدأ لي أنه لم يفهم . هذه هي الأمور التي حدثت في استجواب ذلك النهار ..

مثلت أمام قاضي التحقيق عدة مرات بعد ذلك ، وكان محامي يصحبنى دائماً . كان الاستجواب يتعلق بسؤالي عن إيضاح إفادتي السابقة . أو كان القاضي والمحامي يناقشان بعض الحجج . في تلك اللحظات لم يكونا يعبرانني أقل التفات ، وكانت نبرة الاستجواب ، على أية حال ، قد اختلفت مع مرور الأيام . وبدأ لي أن القاضي فقد اهتمامه بي ، وأنه وصل إلى قرار نهائي في قضيتي . لم يعد يذكر الله أو يتحدث في الأمور الدينية التي أربكتني في مقابلتي الأولى . والنتيجة أن علاقاتنا أمست أكثر ودية . فبعد عدد من الأسئلة ، يتبعها بعض النقاش مع المحامي ، ينهي القاضي التحقيق . وراحت قضيتي «تتخذ مجراها» على حدّ تعبيره . والمناقشة تتخذ ، في بعض الأحيان ، طابع حديث عام ، ويشجعني القاضي والمحامي على الاشتراك فيها . وبدأت أتفلس في حرية أكثر . ولم يبد أي منهما ، في هذه الأوقات ، شيئاً من العداء تجاهي ، فسارت الأمور على خير ما يرام ، في وداد ، بحيث رحت أشعر هذا الشعور المضحك ، ألا وهو أنني «غدوت فرداً من أفراد العائلة» . وأستطيع أن أقول صادقاً إنني ، خلال الأحد عشر شهراً التي استغرقتها هذه الاستجوابات ، شُدهت من أنني لم أبتهج قط بشيء أكثر من ابتهاجي بتلك اللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها إلى باب مكتبه وهو يربّت على كتفي ويقول في نبرة ودية :

- حسناً ، أيها المنكر للمسيح ، هذا يكفيني اليوم !

وكنت أسلمُ بعدها إلى حراسي .

هنالك أمور لم أحبّ أن أتحدث عنها قط . وقد قررت ، بعيد عدة أيام من إرسالني إلى السجن ، أن غط حياتي هذا كان واحداً من تلك الأمور . وبدأت أشعر على أية حال ، والأيام توالي سيرها العادي ، أن هذا النفور ليست له أهمية على الإطلاق . والواقع أنني خلال هذه الأيام القليلة الأولى لم أكن أشعر أنني نزيل سجن ، بل كنت أنتظر في غموض حدثاً ما ، مفاجأة سارة . حدث هذا التبدّل بعد زيارة ماري الأولى والوحيدة . فمئذ اليوم الذي وصلتني فيه رسالتها التي تعلن فيها أنهم لن يسمحوا لها بزيارتي مرة أخرى لأنهم لم تكن زوجتي - منذ ذلك اليوم أحسست أن هذه الزنزانة هي بيتي الأخير ، أو كما يقولون البيت الذي أنتقل منه إلى العالم الآخر .

وضعتني يوم توقيفي في غرفة أكبر من هذه كان فيها عدة موقوفين ، معظمهم من العرب . وقد ضحكوا عندما رأوني أدلف إلى الغرفة ، وسألوني ماذا فعلت . رويت لهم أنني قتلت عربياً ، فجنحوا إلى الصمت فترة من الوقت . وسرعان ما هبط الليل ، فشرح لي أحدهم كيف أرتب الحصار الذي سأنام عليه . إن أنا طويت أحد طرفيه جعلت من ذلك وسادة . وشعرت طوال الليل بجيش من البق يزحف على وجهي .

نقلت بعد عدة أيام إلى زنزانة مفردة رحلت أناام فيها على لوح خشبي معلق

بالجدار . وكان في الغرفة سطل أستعمله كمرحاض وحوض من التلك . كان السجن في مكان مرتفع من المدينة ، وكنت أستطيع من نافذتي أن أمدُ بصري إلى البحر . وذات يوم كنت متعلقاً بقضبان النافذة الحديدية ، وقد أرسلت عيني صوب ضوء الشمس المتراقص على الأمواج ، فدخل عليّ الحارس وقال إن أحدهم جاء لزيارتي . وفكرت أنها قد تكون ماري ، وكانت هي فعلاً . اجتزت إلى قاعة الزوار رواقاً طويلاً ، ثم سلماً قصيراً ، ومن بعد رواقاً آخر . كانت القاعة فسيحة الجنبات ، يدخل إليها الضوء من نافذة كبيرة . وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام بحاجزين حديديين مرتفعين يقطعانها عرضانياً . وبين هذين الحاجزين ثغرة في حدود ثلاثين قدماً تفصل بين المساجين وزوارهم . قادوني إلى نقطة قبالة ماري تماماً ، وكانت ترتدي ثوبها المخطط . وكان عن جانبي حوالي عشرة من المساجين الآخرين ، أغلبهم من العرب . وإلى جانب ماري كان ثمة عدد من النساء المغربيات . كانت تقف بين امرأة عجوز قصيرة مزومة الشفتين ، وأخرى سمينة ، عارية الرأس ، تتحدث في صوت حاد وتأتي كثيراً من الحركات بيديها . ولما كانت المسافة بعيدة بين الزوار والمساجين وجدت نفسي مرغماً على الحديث بصوت عال .

عندما دخلت كان ضجيج الأصوات يتردد على الجدران العارية ، وأشعة الشمس تتسلل إلى الغرفة فتغمر كل شيء بضوء أبيض عنيف ، فأكاد أصاب بالدوار . واضطرت بعد تلك الظلمة المألوفة والصمت المطبق في زنزانتني إلى لحظات قصيرات لأعتاد هذه الأوضاع الجديدة . واستطعت بعد فترة أن أرى كل وجه بوضوح وقد غمرته موجة من شعاع النهار .

رأيت ضابطاً من ضباط السجن يجلس عند كل من طرفي الفسحة بين الحاجزين . كان المساجين العرب وعائلاتهم يجلسون القرفصاء عند كل من طرفي الحاجزين ، قبالة بعضهم بعضاً . ولم يكن أحدهم يرفع صوته ، فهم

يستطيعون التفاهم ، رغم الضجيج ، بأصوات تكاد تكون همساً . وكانت هذه المهمة من الأصوات ، المنطلقة من الأسفل ، تشكل نوعاً من الترجيع المتواصل للأحاديث المنعقدة فوق رؤوسهم . وعيت ذلك كله في سرعة ، وتقدمت خطوة صوب ماري . كانت تضغط وجهها الأسمر الذي لُوحتته الشمس على القضبان ، وتبتسم بكل قواها . أحسبني وجدتتها رائعة الجمال ، ولكنني عجزت عن أن أوضح لها ذلك .

سألته في صوت مرتفع النبرة :

- حسناً ؟ كيف حالك ؟ هل أنت على ما يرام ، وهل لديك كل ما تحتاج إليه ؟

- أوه ، أجل . لدي كل ما أحتاج إليه .

لجأنا إلى الصمت فترة . وظلت ماري تبتسم . وكانت المرأة السمينة تصرخ بالسجين الملاصق لي ، ويبدو أنه زوجها ، وهو رجل طويل ، أشقر ، حلو الطلعة .

صرخت :

- لقد رفضت جان أن تأخذه ...

فأجاب الرجل :

- هذا سيء حقاً .

- بلى . وقلت لها إنك ستأخذه حالما تخرج ، ولكنها لم تسمع ذلك .

وصرخت ماري عبر الشفرة قائلة إن ريمون حملها تحياته لي ، فقلت :  
- شكراً .

وغرق صوتي في خضم السؤال الذي طرحه جاري :

- هل هو في صحة جيدة ؟

فضحكت المرأة السمينة :



- صحة جيدة ؟ لا ريب أنه كذلك ! إنه في أكمل صحة .

في تلك الأثناء كان السجين الملاصق من اليسار ، وهو شاب ناعم اليدين رقيقها ، صامتاً لا ينبس بحرف . ورأيت أن عينيه تركزتا على المرأة العجوز القصيرة التي تقابله ، بينما هي تردُّ له نظره في شيء من هوى جائع . ولكنني حوَّلت نظري عنهما . كانت ماري تصرخ لي قائلة إنه ينبغي ألا تفقد الأمل . أجبته بقولي :

- أكيد .

سقطت نظرتي على كتفيها ، فأخذتني رغبة مفاجئة في عصرهما من فوق رداثها الرقيق . لقد خبلني قماشه الحريري الناعم ، فأحسست أن الأمل الذي تحدثت عنه قد تجمَّع فيه . وتصورت شيئاً من هذا القبيل يدور في خاطر ماري أيضاً لأنها كانت تبسم وهي ترنو إليّ .

- سينتهي كل شيء على خير ، وسترى ذلك . ومن بعد سنتزوج .

لم أعد أرى منها غير تألق أسنانها الأبيض ، والثنيت الصغيرة حول عينيها . فأجبت :

- هل تظنين ذلك حقاً ؟

أنا لم أفه بذلك إلا لمجرد إحساسي بوجوب أن أقول شيئاً .

راحت تتحدث في عجلة متزايدة وصوت مرتفع الغنة :

- بلى ، سوف يحكمون ببراءتك . سنذهب للسباحة مرة أخرى أيام الآحاد .

كانت المرأة إلى جانب ماري لا تبرح تصيح ، وتروي لزوجها أنها تركت له

سلة في مكتب السجن . وعددت له الأشياء التي وضعتها في السلة وطلبت إليه

التدقيق جيداً أثناء استلامها لأن بعض الأشياء تكلفت مبالغ باهظة . وكان

جاري الشاب الآخر وأمه لا يزالان يتبادلان نظرات مكتئبة ، في حين أن همس

المواطنين الآخرين يتردد من تحتنا . ويبدو أن الضوء في الخارج شرع يصطخب

على النافذة ، ويتسلل إلينا فيلطح وجوه الناس الذين يقابلون النافذة بمسحة من زيت أصفر اللون .

بدأت أشعر بالقرف والغثيان ، وأتمنى أن أنتهي من هذه المقابلة . كانت الأصوات المترددة عن جانبي تؤلم أذني . ولكنني كنت أودّ ، من جهة أخرى ، أن أعبّ من وجود ماري قدر المستطاع . ولا أعلم الوقت الذي مرّ . أذكر أن ماري وصفت لي عملها ، وتلك الابتسامة الحلوة تبحر على وجهها . وكانت الضجة ، والصباحات ، والأحاديث تطفئ على كل شيء . وكانت واحة الصمت الوحيدة هي ذلك الشاب وتلك العجوز اللذين يترانيان بلا انقطاع .

بعيد ذلك اقتيد العرب واحداً بعد الآخر . وخيّم الصمت على الجميع بعد ذهاب أول مسجون منهم . وضغطت المرأة العجوز القصيرة نفسها على القضبان ، وفي الوقت ذاته ربّت الحارس على كتف ولدها . صاح :  
- وداعاً ، يا أماء .

فأمرت يدها خلال القضبان ، ولوّحت له بحركة صغيرة بطيئة . لم تكد المرأة تخرج حتى أخذ مكانها رجل يحمل قبعة في يده . وجيء بمسجون إلى المكان الذي فرغ إلى جانبي ، وبدأ الاثنان حديثاً نشيطاً . في صوت خفيض لأن القاعة استعادت صمتها المألوف . وجاء أحدهم واقتاد الرجل عن يساري ، فصاحت به امرأته - يبدو أنها لم تلاحظ أنه لم يعد ثمة ضرورة للصراخ :

- اعتن بنفسك ، يا عزيزي ، ولا تأت عملاً طائشاً !  
جاء دوري بعد ذلك . فأرسلت لي ماري قبلة . التفت الى الوراء وأنا أبتعد . إنها لم تتحرك ، ووجهها منضغط على القضبان ، وشفتاها تفتران عن ابتسامة متشنجة ممزقة .

وما أسرع أن وصلتني منها رسالة . ومنذ تلك اللحظة بدأت الأمور التي لم

أكن أحب التحدث عنها على الإطلاق ، ليس لأنها رهيبة بصورة خاصة ، بل لأنها لم أكن أرغب في المبالغة . فلقد قاسيت أقل مما قاسى الآخرون . ورغم ذلك كان ثمة شيء واحد في تلك الأيام الأولى صعباً عليّ : اعتيادي على التفكير مثل رجل حر .

كانت تملكني على غير انتظار ، مثلاً ، رغبة في الذهاب إلى الشاطئ . للسباحة ، وأن أتخيّل صوت الأمواج عند قدمي ، ومن بعد ذلك الشعور الناعم بالماء يلامس جسدي وأنا أهوي فيه ، وذلك الاحساس الرائع بالراحة والارتخاء الذي يبعثه في المرء . وكانت ذكرى البيت في تلك الزلزلة الضيقة تشد عليّ أكثر من أي شيء آخر .

استمر ذلك بضعة أشهر ، وبعد ذلك تملكني الأفكار التي تسيطر على كل سجين . كنت أنتظر النزهة اليومية في الساحة ، أو زيارة محامي . وكنت أتدبر أمري جيداً فيما يتبقى من الوقت . وكنت أفكر غالباً أنهم لو وضعوني لأعيش في جذع شجرة يابسة ، دون أن يشغلني شيء غير التحديق في رقعة السماء فوق رأسي ، لاعتدت ذلك تدريجياً . كنت تعلّمت إذن أن أراقب مرور الطيور أو تسيار السحب ، مثلما اعتدت أن أراقب ربطة عنق محامي غريبة الشكل ، أو بكلمة أخرى - أن أنتظر على توقّ مجيء نهار الأحد لأمارس الحب مع ماري . حسناً ، فأننا لم أحشر هنا في جذع شجرة . ففي العالم أناس آخرون أكثر مني شقاء . وتذكرت أن هذه الفكرة كانت إحدى آراء أمي - وكانت ترددها دائماً - بشكل يرغم الإنسان على أن يعتاد على كل شيء .

ومهما يكن من أمر فأننا لم أسترسل عادة في التفكير بهذه الأمور إلى هذا الحد . كانت الأشهر الأولى قاسية من دون ريب ، غير أن المجهود الذي ينبغي عليّ أن أقوم به ساعدني على تحملها . كان يعذبني ، مثلاً ، شوقي إلى المرأة - وهو أمر طبيعي جداً بالنسبة إلى عمري . لم أكن أفكر في ماري بشكل

خاص . كان يوجعني التفكير في هذه المرأة أوتيك ، وفي جميع النساء اللواتي  
عرفت ، وفي جميع المناسبات التي أحببتهن فيها ، حتى أن زنزانتني تعج  
بوجوههن ، وبأشباح رغباتي وشهواتي القديمة . وقد أثارني ذلك من دون  
ريب ، ولكنه كان يقتل الوقت على أقل تقدير .

انتهيت تدريجياً إلى كسب ودّ رئيس الحرس الذي يشرف على توزيع  
الطعام . وهو الذي حدثني عن النساء . قال لي :

- هذا هو الشيء الذي يتدمر منه جميع الرجال هنا أكثر من أي شيء آخر .

فقلت له إنني أشعر مثل شعورهم تماماً . وأضفت :

- وهذا ليس من العدالة في شيء . إنه أشبه بأن تضرب رجلاً مصروعاً .  
فقال :

- هذا هو لبّ الموضوع كله . لهذا السبب يضعونكم ، أيها الفتيان ، في  
السجن .

- كيف ذلك ؟

- الحرية تعني هذا . إنهم يحرمونكم حريتكم .

لم أكن فكرت في الأمر على هذا الغرار ، ولكنني وافقته على رأيه . قلت :

- هذا صحيح . وإلا لن يكون ذلك عقاباً .

فاوماً رئيس الحرس ، قائلاً :

- بلى ، تختلف أنت عن الآخرين . فأنت تستخدم عقلك . أما الآخرون

فلا يفعلون . ولكن هؤلاء يجدون لأنفسهم مخرجاً . ويجدون من تلقاء نفوسهم .

غادر رئيس الحرس زنزانتني . وفي اليوم التالي فعلت مثلما يفعل الآخرون .

كان نقص اللفائف محنة أخرى أيضاً . عندما دخلت السجن أخذوا

حزامي ، ورباط حذائي ، ومحتويات جيوبي بما في ذلك لفائفي . وحين دخلت

زنزانتني طلبت أن يردوا لي لفائفي . كان التدخين ممنوعاً . هذا ما قالوا لي .

خاص . كان يوجعني التفكير في هذه المرأة أوتيك ، وفي جميع النساء اللواتي  
عرفت ، وفي جميع المناسبات التي أحببتهن فيها ، حتى أن زنزانتني تعج  
بوجوههن ، وبأشباح رغباتي وشهواتي القديمة . وقد أثارني ذلك من دون  
ريب ، ولكنه كان يقتل الوقت على أقل تقدير .

انتهيت تدريجياً إلى كسب ودّ رئيس الحرس الذي يشرف على توزيع  
الطعام . وهو الذي حدثني عن النساء . قال لي :

- هذا هو الشيء الذي يتدمر منه جميع الرجال هنا أكثر من أي شيء آخر .

فقلت له إنني أشعر مثل شعورهم تماماً . وأضفت :

- وهذا ليس من العدالة في شيء . إنه أشبه بأن تضرب رجلاً مصروعاً .  
فقال :

- هذا هو لبّ الموضوع كله . لهذا السبب يضعونكم ، أيها الفتيان ، في  
السجن .

- كيف ذلك ؟

- الحرية تعني هذا . إنهم يحرمونكم حريتكم .

لم أكن فكرت في الأمر على هذا الغرار ، ولكنني وافقته على رأيه . قلت :

- هذا صحيح . وإلا لن يكون ذلك عقاباً .

فاًوماً رئيس الحرس ، قائلاً :

- بلى ، تختلف أنت عن الآخرين . فأنت تستخدم عقلك . أما الآخرون

فلا يفعلون . ولكن هؤلاء يجدون لأنفسهم مخرجاً . ويجدونه من تلقاء نفوسهم .

غادر رئيس الحرس زنزانتني . وفي اليوم التالي فعلت مثلاً يفعل الآخرون .

كان نقص اللفائف محنة أخرى أيضاً . عندما دخلت السجن أخذوا

حزامي ، ورباط حذائي ، ومحتويات جيوبي بما في ذلك لفائفي . وحين دخلت

زنزانتني طلبت أن يردوا لي لفائفي . كان التدخين ممنوعاً . هذا ما قالوا لي .

لربما كان ذلك ما هدّني . والحقيقة أنني قاسيت كثيراً خلال الأيام الأولى القليلة ، بل اقتلعت بعض شظايا سريري وجعلت أمصها . وكنت أشعر طوال النهار بما يشبه الاغماء والغثيان . لم أكن أفهم لماذا يمنعوني عن التدخين . فذلك لا يسيء إلى أحد . وفهمت فيما بعد الفكرة الكامنة وراء ذلك . كان هذا الحرمان جزءاً من عقابي . ولكنني فقدت في خلال هذه الفترة عادة التدخين ، فلم يعد ذلك عقاباً بالنسبة إليّ .

فما عدا هذه الازعاجات لم أكن شقياً أكثر مما ينبغي . كانت المشكلة كلها تلخص فيما يلي : كيف أقتل الوقت . ومهما يكن من أمر ، فقد تعلمت بعد فترة كيف أتذكر الأمور ، فلم أعد أشعر بالضجر على الإطلاق . كنت أمتحن ذاكرتي أحياناً بالتفكير في غرفة نومي ، فأبدأ من إحدى زواياها ، وأقوم بجولة فيها ، وأعدّد جميع الأشياء التي رأيته خلالها . كان ذلك يتم في دقيقة أو دقيقتين أول الأمر ، ولكن الوقت شرع يطول قليلاً كلما أعدت هذه التجربة . كنت أعمد إلى تذكر كل قطعة أثاث ، وكل ما عليها أو في داخلها من أشياء ، ومن بعد كل تفصيل من هذه الأشياء ، وفي النهاية كل تفصيل من هذه التفاصيل : كل نقر طفيف ، أو تقشر ، أو طرف مشقوق ، ودقة التعريق واللون . وأرغمت نفسي في الوقت ذاته على أن أحفظ هذا الجرد في ذهني من البداية حتى النهاية ، بالتسلسل ، ودون أن أحذف أي شيء ، بشكل يتيح لي أن أقضي ، بعد عدة أسابيع ، ساعات بطولها في إحصاء موجودات غرفة نومي . ووجدت أنني كلما أمنت في التفكير ضاعت من ذاكرتي تفاصيل نصفه منسية . وبدأ لي أنه لا نهاية لهذه الأشياء .

وهكذا تعلمت أن الانسان يستطيع ، حتى بعد تجربة يوم واحد في العالم الخارجي ، أن يعيش بسهولة مئة عام في السجن . لا بدّ أنه اختزن ما يكفي من الذكريات كيلا يضجره السأم . وقد كان هذا مكافأة له إلى حدّ ما .

ثم كان هنالك النوم . كنت أول الأمر أنام نوماً مؤرقاً في الليل ، ولا أنام في النهار أبداً . وتحسنت لياليّ تدريجياً ، وصرت أنام في النهار أيضاً . ولا ريب أنني كنت أنام خلال الأشهر الأخيرة ، من ست عشرة إلى ثماني عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين . وهكذا يتبقى لي ست ساعات ينبغي إشغالها . وكنت أشغلها بالطعام ، وقضاء الحاجات الطبيعية ، وذكرياتي ... وقصة التشيكوسلوفاكي .

ذات يوم ، وأنا أبحث في قش فرشتي ، عثرت على قصاصة من صحيفة ملصقة بالقماش . كانت الصحيفة صفراء من مرور الأيام ، شفافة ، ولكنه يمكن قراءة الحروف عليها . كانت قصة جريمة . وكان مطلعها ناقصاً ، ولكن الانسان يستطيع أن يخمن أن مسرحها كان في إحدى قرى تشيكوسلوفاكيا . غادر أحد الفلاحين بيته سعياً وراء الثروة . وبعد خمس وعشرين سنة ، وكان جمع ثروة محترمة ، رجع إلى قريته مع زوجته وولده . في هذه الأثناء كانت أمه وشقيقته تديران فندقاً في مسقط رأسه . خطر له أن يفاجئهما ، فترك زوجته وابنه في فندق آخر ، وذهب يقيم في فندق أمه حيث استأجر غرفة تحت اسم مستعار . لم تعرفه أي من أمه أو شقيقته . فأراها عند العشاء تلك الليلة مبلغاً ضخماً من المال يحمله ، فقتلته خلال الليل بمطرقة ، وسرقتا المال ، ورمتا جسده في النهر . وجاءت زوجته صباح اليوم التالي وكشفت هوية زوجها دون أن تعرف شيئاً عن الحادث . فشنت الأم نفسها . وألقت الأخت بنفسها في بئر . ولا بد أنني قرأت هذه القصة آلاف المرات . كانت غير محتملة من ناحية ، وطبيعية جداً من ناحية ثانية . وعلى أية حال ، فقد كنت أجد ذلك الرجل باحثاً عن المتاعب ، فلا ينبغي على المرء أن يلعب مثل هذه الأدوار السخيفة .

وهكذا كانت الأيام تنزلق بين ساعات النوم ، وذكرياتي ، وقراءة تلك الصحيفة ، وموجات الضوء والظلمة . وكنت قرأت قبلاً أن المرء في السجن يفقد

فكرة الزمن . لكن هذا لم يكن ذا معنى كبير بالنسبة إليّ . فلم أكن فهمت كيف تكون الأيام طويلة وقصيرة في وقت واحد . طويلة باعتبارها فترات يعيشها المرء ، ولكنها من شدة الطول بحيث تنتهي إلى أن يطفو بعضها على بعض . الحقيقة أنني لم أفكر في الأيام على هذا الغرار . كانت كلمتا «الأمس» و«غداً» الشيء الوحيد الذي احتفظ في رأيي بمعنى ما .

يوم أخبرني الحارس مرة أنه مرّ عليّ في السجن ستة شهور صدّقه - لكن كلماته لم تحتفظ بأي أثر في ذهني . ففي نظري كان ذلك اليوم واحداً لم يتبدل منذ دخولي إلى الزنزانة ، وأنتي لم أكن أفعل أكثر من الأشياء ذاتها طوال ذلك الوقت .

ولم يكد الحارس يتركني حتى نظفت إنائي المصنوع من التنك جيداً ودرست وجهي على صفحته . كانت صورتي المعكوسة جدّية بشكل مخيف حتى حين حاولت أن أبتسم . وحملت الاناء في زوايا مختلفة ، فلم يكن يعكس غير ذات الوجه بتعبيره الحزين المتوتر .

كانت الشمس تتطفّل ، وهي تلك الساعة التي لا أحب أن أتحدث عنها - «الساعة التي لا تحمل اسماً» ، كما أطلقت عليها - حين تزحف أصوات المساء من جميع بوابات السجن من جميع الجهات . اقتربت من النافذة المشبكة بالحديد ، ورمت نظري على ضوء آخر شعاعات النهر إلى انعكاس وجهي على الاناء . كان الوجه صارماً ما يزال ، مثله قبلاً . لم يدهشني ذلك ، فقد كنت جاداً في تلك اللحظة . وسمعت في الوقت ذاته شيئاً لم أسمعته منذ شهور عديدة . كان صدى صوتٍ ، صوتي أنا ، لا ريبة في ذلك . وعرفت فيه ذلك الصوت الذي كان يرنُّ في أذني كثيراً كل يوم مؤخراً . وأدركت عندها أنني كنت أحدث نفسي طوال الوقت .

تذكرت شيئاً قيل لي مرة ، ملحوظة أبدتها لي الممرضة في جنازة أمي . كلا ،



لم يكن ثمة مخرج ، ولا يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون الأمسيات في السجن .

لا أستطيع أن أقول ، على وجه الاجمال ، إن تلك الشهور مرت في بطنه .  
 كان ثمة صيف آخر يقترب منا قبل أن أدرك أن الصيف الماضي ولى أدراجه .  
 وكنت أعرف أن ثمة شيئاً جديداً بالنسبة إليّ سيحدث مع قدوم الأيام الحارة  
 الأولى . كانت قضيتي مسجلة في الدورة الأخيرة من دورات محكمة الجنايات  
 العليا ، وكانت تلك الدورة ستنتهي مع نهاية شهر حزيران .  
 كان اليوم الذي بدأت فيه رؤية قضيتي يوماً مشمساً . وأكد لي وكيللي أن  
 المحاكمة ستستغرق يومين أو ثلاثة أيام . وأضاف :  
 - سمعت أن المحكمة ستنتظر قضيتك بأسرع ما يمكن ، لأنها ليست أهم  
 قضية في قائمة الدعاوى . فثمة قضية قتل أبوي سينظر فيها بعد قضيتك  
 فوراً ، وقد يطول أمدها .

جاؤوا إليّ في الساعة السابعة والنصف صباحاً ، ونقلوني إلى قصر العدل في  
 سيارة السجن . أدخلني الشرطيان إلى غرفة صغيرة تنبعث منها رائحة العتمة .  
 جلسنا قرب باب تدق من خلاله أصوات ، ونداءات ، وضجيج مقاعد على  
 الأرض . إنها ضجة ذكرتني بإحدى تلك الحفلات التي تجري في الأحياء ،  
 حين يروحون يخلون القاعة بعد انتهاء العزف تمهيداً للرقص .  
 أخبرني أحد الشرطيين أن القضية لم يحضروا بعد ، وقدم لي لفافة ،

فرفضتها . سألتني بعد قليل عما إذا كنت أشعر بالاضطراب . فقلت ،  
- كلا ، ان حضور إحدى المحاكمات يثير اهتمامي . فلم يتح لي التفرج على  
ذلك قبلاً .

قال الشرطي الآخر :  
- لربما أنت على حق . لكن ما أن تنقضي ساعة أو ساعتين حتى يمل المرء  
ذلك .

أز بعد قليل جرس كهربائي في القاعة ، فنزعوا الأغلال عن يدي ، وفتحوا  
الباب ، واقتادوني إلى قفص الاتهام .  
كانت القاعة تغص بجمهور من الناس ، والستائر مغلقة ، والضوء يتسرب  
من بعض الثقوب . وكان الهواء حاراً خانقاً ، والنوافذ مغلقة هي الأخرى .  
جلست ، ووقف شرطيان عن جانبي مقعدي .

لمحت عندها صفاً من الوجوه الفظة أمامي . كانوا يحدقون بقسوة في  
وجهي ، فعرفت أنهم القضاة . ولكنني لم أفقه كيف أميزهم عن بعضهم .  
أحسست إحساس رجل استطاع أن يركب تراماً ، فراح جميع هؤلاء الناس  
الجالسون على المقعد أمامه يحدقون فيه على أمل أن يجدوا في مظهره شيئاً باعثاً  
على التسلية . كنت أعرف جيداً أنها مجرد مقارنة ، لأن ما كان هؤلاء الناس  
يبحثون عنه ليس شيئاً يبعث على التسلية ، بل أدلة اتهام . ومع ذلك لم يكن  
الفرق كبيراً . هذه هي ، على أية حال ، الفكرة التي راودتني .

أحسست بشيء من الدوار من جراء هذا الجمهور وحرارة الجو . فأجلت مرة  
أخرى عيني في قاعة المحكمة ولكنني لم أميز أياً من الوجوه . لم أؤمن أول  
الأمر أن جميع هؤلاء الناس جاؤوا لرؤيتي . كان ذلك تجربة جديدة ، أن أكون  
محطاً أنظار الناس . لم يكن الناس عادة يهتمون بشخصي على الإطلاق .  
فقلت للشرطي عن يساري :

- يا لهذا الجمهور الفقير !  
فأعلمني أن الصحف هي سبب ذلك كله . وأشار إلى عدد من الأشخاص  
جلسوا تحت منصة القضاة تماماً :  
- هؤلاء هم !  
- من ؟  
- الصحف .

وأضاف ان أحدهم صديق له .  
بعيد لحظة اتجه ذلك الرجل الذي أشار اليه صوبنا ، فاقترب من قفصنا ،  
وصافح الشرطي بحرارة . كان الصحافي رجلاً عجوزاً ، مقطب الوجه ، حركاته  
قريبة إلى القلب . ولحظت عندها أن جميع الموجودين في قاعة المحاكمة يحيون  
بعضهم بعضاً ، ويتبادلون الأحاديث ، ويؤلفون حلقات - كما لو كانوا في أحد  
النوادي التي يلتقي فيها أناس من مشرب واحد . وقد شرح لي هذا ، من دون  
ريب ، معنى ذلك الانطباع الغريب الذي شعرت به من أنني إنسان زائد هنا ،  
أو طفيلي إلى حد ما .

ومهما يكن من أمر ، فقد حدثني الصحافي بنبرة لطيفة ، وقال إنه يأمل أن  
تنتهي الأمور نهاية طيبة بالنسبة إليّ . فشكرته ، فأضاف مبتسماً :  
- أنت تعرف أننا شهّرنا بك قليلاً . الصيف فصل أجوف بالنسبة إلينا ،  
ولم يكن لدينا ما نتحدث عنه غير قضيتك والقضية التي تتلوها . لا ريب أنك  
سمعت بها . إنها قضية قتل أبوي .

ولفت انتباهي إلى أحد الصحفيين ، وهو رجل سمين ، قصير ، يضع  
نظارتين ضخمتين محاطتين بالسواد ، يترك في نفس من ينظر إليه أنه ابن عرس  
مسن .

- هذا الرجل مبعوث خاص من إحدى الصحف الباريسية اليومية . ولكنه

لم يأت لتغطية أخبار قضيتك . جاء من أجل قضية القتل الأبوي . ولكنهم طلبوا إليه تزويدهم بأخبارك أيضاً .

كدت أن أقول :

- هذا لطف منهم .

ولكنني فكرت أن ذلك سيكون سخيفاً . تركنا وهو بلّوح لي بيده إيماءة ودية ، ولم يحدث شيء طوال دقائق .

دخل محامي في صحبة عدد من زملائه مرتدياً ثوب المحاكمات . اتجه صوب منضدة الصحفيين وصافح عدداً منهم . ظلوا يضحكون ويتنادرون ، في راحة مطلقة ، حتى قرع جرس فاتخذ كل منهم مجلسه . جاء وكيلي إليّ . وصافحني ، ونصح لي أن أرد على الأسئلة بقدر ما أستطيع من اختصار . وألا أعطي أية معلومات من تلقاء نفسي ، وأن أعتد عليه فيما عدا ذلك .

سمعت ضجة مقعد الى يساري ، ورأيت رجلاً طويلاً نحيل العود يضع نظارة على إحدى عينيه راح يمسّد ثوبه الأحمر وهو يجلس على مقعده . إنه المدعي العام . وأعلن حاجب المحكمة أن القضاة في طريقهم إلى منصتهم . فشرعت في اللحظة ذاتها مروحتان كبيرتان تضجان في الأعلى . ودخل ثلاثة قضاة ، اثنان يرتديان السواد والثالث القرمزي ، يتأبطون بعض الإضرابات ، ومشوا بسرعة إلى المنصة التي ترتفع عن مستوى أرض القاعة عدة أقدام . جلس الرجل القرمزي في الوسط على مقعد عالي الظهر ، ووضع قلنسوته على المنصة ، ومرّر منديلاً فوق جمجمته الصلعاء ، وأعلن أن الجلسة افتتحت .

كان الصحفيون قد أمسكوا أقلامهم على أهبة الاستعداد ، وقد خلعوا على وجوههم جميعاً ملامح اللامبالاة التي لا تخلو من مكر ، بخلاف أحدهم ، وكان يبدو أصغر سناً من رفاقه ، يرتدي ثوباً من الفانلة الرمادية ويضع ياقة عنق زرقاء ، فقد ترك قلمه على المنضدة ، وراح يصرو إليّ بقسوة . كان وجهه

عادياً مكتنزاً . أما ما لفت انتباهي فهو عيناه ، عينان صافيتان شاحبتان ، تنفحصانني ، من دون أن تعبرا عن شيء محدد . وأخذني شعور عجيب طوال لحظة ، فكأنني أتفحص نفسي . ولعل ذلك - بالاضافة إلى جهلي بأصول المحاكمات - يمكن أن يشرح فشلي في إدراك ما يدور أمامي : اقتراع القضاة ، والأسئلة التي طرحها الرئيس على المدعي العام ، ورئيس المحلفين ، ووكيلي (كانت رؤوس المحلفين تلتفت الى المنصة كلما تحدث) ، والقراءة السريعة لقرار الاتهام الذي سمعت منه أسماء أشخاص وأمكنة ، ثم أسئلة جديدة وجهت إلى وكيلي .

وأعلن الرئيس أن المحكمة ستعلن قائمة شهود الحق العام . فقرأ الحاجب عدة أسماء أدهشتني . وفي قلب الجمهور الذي لم يكن له شكل حتى تلك الساعة رأيت عدة وجوه ضبابية تنهض واحداً بعد الآخر ، ريمون ، وماسون ، وسالامانو ، وبواب المأوى ، وبيريز العجوز ، وماري التي لوحت لي بيدها بإيماء قصيرة قبل أن تلحق بالآخرين الذين خرجوا من باب جانبي . ورحت أفكر كيف لم أنتبه إلى أي منهم قبل أن أسمع آخر اسم ، وهو اسم سيليست . وبينما هو ينهض رأيت إلى جانبه تلك المرأة الصغيرة الغريبة بمعطفها اللأنتوي وهبتها الرشيقة العازمة ، تلك التي جلست الى جانبي في المطعم . كانت تنظر إلى نظرة ثابتة . ولكنه لم يتح لي أن أفكر فيها ، فقد بدأ القاضي يتحدث من جديد .

قال إن الاستجواب سيبدأ ، وإنه لا حاجة على الإطلاق أن يذكر الحضور بأن يجنحوا إلى هدوء . وشرح أنه ههنا للإشراف على الاجراءات باعتباره حكماً ، وأنه سيلقي على القضية نظرة مدققة متفحصة . وسوف يؤخذ قرار الحكيمين بروح العدالة . وأخيراً ، فهو سيضطر إلى إخلاء القاعة لدى أقل حادث .

كانت الحرارة تزداد شدة . وكان بعض الحاضرين يروّحون وجوههم بصحف في أيديهم ، وكانت تتعالى في القاعة أصداء صحف مدعوكة . وأوماً الرئيس إيماءة ، فأحضر الحاجب ثلاث مراوح من القش المجدول شرع القضاء باستخدامها على الفور .

بدأ استجوابي في الحال . فسألني القاضي في هدوء ، بل في شيء من اللطف ، كما خيل إليّ . وطلب إليّ مرة أخرى أن أعطي تفاصيل هويتي ، فتحققت ، رغم سأمي من هذه الشكليات ، أن الأمر ينبغي أن يسير على هذا المنوال . سيكون خطيراً في آخر المطاف أن تحاكم المحكمة رجلاً لا علاقة له بالموضوع .

كرّر الرئيس عندئذ قصة ما كنت اقترفتُ ، وهو يتوقف بين كل عبارتين أو ثلاث عبارات ليسألني :

- أليس كذلك ؟

وكنت أرد عليه قائلاً :

- بلى ، يا سيدي .

وكان وكيلي قد علمني ذلك . واستغرق الأمر وقتاً طويلاً ، فقد كان الرئيس يدقق في كل شاردة . في هذه الأثناء كان الصحفيون يكتبون في نشاط . وكنت أحسُ أحياناً بنظرات أصغرهم منصبة عليّ ، كما أحسُ بنظرات تلك السيدة الصغيرة الغريبة . وكانت أنظار المحلفين معلقة كلها بذلك القاضي القرمزي ، فتخيلت من جديد صف الركاب المتكومين على مقعد الترام . وسعل هذا سعلة خفيفة ، وقلب بعض صفحات إضبارة ، والتفت نحوي في جفوة وهو يروّح وجهه .

قال إن عليه أن يباشر الآن أسئلة قد يبدو ظاهرها غريباً عن قضيتي ، ولكنها تمسّها عن قرب . ظننت أنه سيتحدث عن أمي ، وشعرت في الوقت ذاته

كم كان ذلك يضايقني . كان سؤاله : لماذا وضعت أمي في المأوى ؟ فأجبت إن السبب بسيط . لم أكن أملك ما يكفي من المال لأحتفظ بها في البيت وأعني بها . ثم سألتني إن سبب لي ذلك شيئاً من الألم . فأجبت إنني وأمي لم يكن أحدنا ينتظر شيئاً من الآخر - ولا من أي إنسان كان . وهكذا كنا نحن الاثنين قد ألفنا شروط حياتنا الجديدتين . فقال الرئيس عندئذ إنه لم يرغب في الالتحاق على هذه النقطة ، وسأل المدعي العام عما إذا كان لديه أية أسئلة أخرى يرغب في طرحها .

كان المدعي العام يوليني ظهري ، فقال ، من دون أن ينظر إليّ ، إنه يؤدّ ، إن أذن الرئيس بذلك ، أن يعلم ما إذا كنت رجعت إلى الجدول وفي نيتي أن أقتل العربي . فأجبت بالنفي . وفي هذه الحال ، لماذا حملت المسدس معي ، ولماذا رجعت سريعاً إلى ذلك المكان ؟ قلت إن ذلك كان مجرد مصادفة بحتة . فأعلن المدعي العام عندئذ في استياء :

- حسناً . هذا كل شيء الآن .

لم أع ما حدث بعد ذلك . ولكنه بعد مشاورات قصيرة بين أعضاء المحكمة ، والمدعي العام ووكيله ، أعلن الرئيس رفع الجلسة إلى ما بعد الظهر للاستماع إلى الشهود .

اقتادوني ، قبل أن يتاح لي وقت للتفكير ، إلى سيارة السجن ، فحملتني إليه حيث قدموا لي طعام الغداء . وبعد وقت قصير رجعوا في طلبتي . ونقلوني إلى تلك القاعة ذاتها ، فقابلت الوجوه نفسها ، وعاد كل شيء من جديد . كانت الحرارة أشدّ منها قبلاً ، ولكن المراوح وزعت بمعجزة على الجميع ؛ القضاة ، ووكيله ، والمدعي العام ، وبعض الصحفيين أيضاً . وكان الصحفي الشاب والمرأة الغريبة جالسين في مكانيهما . لكنهما لم يكونا يحملان مروحة ، بل هما يحقدان في من غير أن ينبسا بكلمة .



مسحت العرق عن وجهي ، لم أفقه أين أو من أكون أنا إلا عندما سمعت صوتاً ينادي مدير المأوى الى منصة الشهود . حينئذ سئل ما إذا كانت أمي تشكو من تصرفاتي قال : «نعم» ، ولكن تلك الشكوى لم تكن تعني شيئاً . فإن أكثر نزلاء المأوى يشكون من أقاربهم . وطلب إليه الرئيس أن يكون أكثر صراحة : هل كانت توبخني لارسالي إياها إلى المأوى ، فأجاب بالاجاب مرة أخرى . ولكنه لم يصف شيئاً على جوابه هذه المرة .

وأجاب عن سؤال آخر أنه أصيب بالدهشة يوم الدفن من جراء هدوني . ولما سئل عما يقصده «بهدوني» خفض عينيه وحَدَّق في حذائه لحظة . ثم أوضح أنني لم أشأ رؤية جثمان أمي ، أو أرسل دمعة واحدة ، وأنني ذهبت بعد الدفن فوراً من دون أن أركع أمام ضريحها . وقد أدهشه شيء آخر . فقد أخبره أحد مستخدمي الحانوتي أنني لم أكن أعرف عمر أمي . وخيَّم صمت قصير . ثم سأله القاضي عما إذا كان تحدث عن هذا السجين في قفص الاتهام . فبدأ شيء من الارتباك على المدير ، فقال له الرئيس :

- إنه سؤال شكلي . ومن واجبي أن أطرحه .

وسئل المدعي العام عندئذ عما إذا كانت لديه أسئلة يود طرحها ، فأجاب بصوت مرتفع :

- لا ، أبداً ! هذا يكفي .

كانت نبرته ونظرة الانتصار التي ارتسمت على وجهه ، وهو يتطلع إليّ ، ذات تأثير غريب لم أشعر به منذ زمن بعيد . تملكنتني رغبة حمقاء في البكاء . فقد أحسست للمرة الأولى كم كان يحترقني هؤلاء الناس .

بعد أن سأل الرئيس المحلفين ومحاميّ ما إذا كانت لديهم أسئلة أخرى ، طلب الرئيس دعوة البواب الذي نظر إليّ وهو يخطو إلى منصة الشهود ، ثم نحى بصره عني . وأجاب عن الأسئلة فقال إنني رفضت رؤية جثمان أمي .

وأنني دخلت وغمت ، وشربت قهوة بالحليب . فشعرت عندها بموجة من الاشمئزاز  
تنتشر في أرجاء القاعة كلها ، وفهمت للمرة الأولى أنني كنت مذنباً . وطلب من  
البواب أن يعيد سرد ما قاله عن القهوة وتدخينني . واستدار المدعي العام إلى  
مرة أخرى وفي عينيه نظرة سخرية . وسأل وكيل البواب ما إذا كان ، هو أيضاً ،  
قد دخّن معي أم لا . ولكن المدعي العام عارض بشدة في طرح هذا السؤال .  
صاح في سخط :

- أحب أن أعرف من هو المتهم في هذه المحكمة . أم ترى صديقي هذا  
يعتقد أنه إذا طعن في أقوال الشاهد سيجرح الأدلة ، الأدلة الدامغة الكثيرة ،  
التي تدين موكله ؟

وعلى أية حال ، فقد أمر الرئيس البواب أن يجيب عن السؤال .  
تردد البواب قليلاً . ثم نتم قائلاً :

- حسناً ، أنا أعرف أنه لم يكن يجب أن أفعل ذلك . ولكنني أخذت اللقافة  
من السيد حين عرضها عليّ - من باب الأدب ليس غير .  
فسألني القاضي إذا كان لديّ ما أقول . فأجبت :

- كلا ، سوى أن الشاهد على حق .. صحيح أنني قدمت له لقافة .  
فتطلع إلى البواب في دهشة وشيء من عرفان الجميل . ثم تردد قليلاً ، وأعلن  
أنه هو الذي اقترح عليّ شرب قليل من القهوة .  
فتهلل محامي ، وقال :

- إن المحلفين سيقدرّون قيمة هذا التفصيل .  
هبّ المدعي العام على قدميه مرة أخرى على غير انتظار . وصرخ فوق  
رؤوسنا :

- صحيح . إن المحلفين سيقدرّون ذلك . وسينتهون إلى أن السجين ، وإن  
كان أحدهم قدّم له قدحاً من القهوة ، فقد كان من واجبه ، من باب اللياقة

والظرف ، أن يرفض تناوله ، إن لم نقل من باب الاحترام لجثمان تلك المرأة المسكينة التي حملته إلى هذه الحياة .

ورجع البواب ، بعد ذلك ، إلى مقعده .

ونودي على توماس بيريز ، واضطر أحد حجاب المحكمة لمساعدته في الوصول إلى المنصة . أوضح بيريز أنه لم يلتق بي غير مرة واحدة رغم أنه كان صديقاً لوالدتي ، وكان ذلك يوم الدفن . ولما سألوه عن تصرفي في ذلك النهار ردّ قائلاً :

- حسناً ، لقد كنت مضطرباً كما تعلمون . وكان اضطرابي يمنعني عن الانتباه إلى الأمور . كان حزني يعمي عيني على ما أعتقد . كانت هزة عيفة وفاة صديقتي العزيزة . والحقيقة أنه أغمي عليّ خلال الجنازة . ولذلك فأنا لم أنتبه إلى الشاب على الإطلاق .

سأله المدعي العام أن يشرح للمحكمة ما إذا كان رأيي أبكي . ولما أجاب بيريز نفياً أضاف المدعي العام منتصراً :

- أحب أن يدون المحلفون هذا الجواب .

فنهض محاميّ على الفور ، وسأل بيريز بنبرة تراءى لي أنها عدائية لا ضرورة لها :

- ألا فكر قليلاً ، يا سيدي ! هل تقسم أنك لم تره يذرف الدمع ؟

فأجاب بيريز :

- كلا .

وتهانف الجمهور عند هذا الجواب ، وشتم محاميّ أحد كمي ثوبه ، وقال في

حدة :

- هذه هي صورة الدعوى . ليس ثمة أية محاولة لتزويق الوقائع الحقيقية . وتجاهل المدعي العام هذه الملحوظة . كان يقرع بقلمه على غلاف اضباره ،

تلوح على وجهه آيات عدم المبالاة .

رفعت الجلسة مدة خمس دقائق للاستراحة ، فأخبرني محامي أن القضية تسير على خير ما يرام . ثم نودي على سيليست . كان قد أعلن عن اسمه كشاهد دفاع . والدفاع هو أنا .

كان سيليست يرميني بنظرة بين فينة وأخرى . وظلّ يعصر قبعته المصنوعة من القش بين يديه أثناء ادلائه بإفادته . كان يرتدي أفخر ثيابه ، تلك الثياب التي يرتديها حين يذهب معي بعض أيام الآحاد إلى سباق الخيل . وكان يبدو أنه لم يستطع أن يضع ياقته ، فقد لاحظت أن ذروة قميصه مُحكمة بزر نحاسي . وسئل عما إذا كنت أحد زبائنه ، فأجاب :  
- أجل ، وهو صديق أيضاً .

وسئل أن يبدي رأيه في ، فأجاب أنني «فتى طيب» . وطلب إليه أن يوضح مغزى ذلك فأجاب أن الجميع يعرفون معنى ذلك .  
- هل كان رجلاً منطوياً على نفسه ؟  
فأجاب :

- كلا . لا يمكن أن أسيئه كذلك . ولكنه ليس رجلاً أبله ، مثل كثيرين من الناس .

وسأله المدعي العام إن كنت أسدّد حسابي الشهري للمطعم عندما يطلب مني ذلك فضحك سيليست :

- أوه ، لقد كان يدفع الحساب فوراً . ولكن الفواتير كانت تفصيلات بيني وبينه .

ثم سئل أن يبدي رأيه بجريمتي . فوضع يديه على حاجز المنصة وبدأ واضحاً أنه أعدّ خطبة مسبقة .

- في رأيي أنها حادث عرضي ، أو ضربة حظ سييء . إذا شئتم أن تسموها

كذلك . إن حادثة من هذا النوع تفقد المرء وعيه .  
وأراد الاستمرار في الحديث ، لكن الرئيس منعه عن ذلك قائلاً :  
- هذا يكفي . هذا يكفي . شكراً .  
وبدا على سيليست أنه صعب . فأوضح أنه لم يكمل حديثه . فطلب إليه أن  
يتابع الكلام ، وأن يختصر ما أمكن .  
وكرر القول إن ذلك كان عبارة عن «حادث عرضي» .

قال القاضي :

- هذا مفهوم . إننا هنا لنحكم على مثل هذه الحوادث طبقاً لنص القوانين .  
يمكنك أن تنصرف .  
استدار سيليست ونظر إلى . كانت عيناه نديانتين وشفته تترجفان ، كمن

يقول :

- حسناً ، لقد بذلت جهدي في سبيلك ، يا صاحبي . أنا خائف ألا  
يساعدك ذلك . أنا آسف .

لم أقل شيئاً ، أوأت حركة ، ولكنني وددت ، للمرة الأولى في حياتي ، أن  
أقبل رجلاً .

طلب إليه الرئيس ثانية أن يغادر المنصة ، فاستدار سيليست إلى مكانه بين  
الجمهور . ظلّ هنالك خلال الجلسة بطولها ، وقد أسند مرفقيه على ركبتيه ،  
وقبعته المصنوعة من القش بين يديه ، يتابع كل كلمة بعناية فائقة .

وجاء دورماري . كانت تلبس قبعة ، وكانت لا تبرح تبدو جميلة ، رغم أنني  
أفضل أن أراها مرسله الشعر . تطلعت من حيث جلست الى تقاطيع نهديها  
الناعمة ، وكانت شفرتها السفلة ناتئة قليلاً ، الأمر الذي يفتني على الدوام .  
وكانت تبدو نائرة الاعصاب .

كان السؤال الأول : منذ متى تعرفني ؟ فأجابت منذ اليوم الذي كانت

تعمل فيه في مكتبنا . ثم سأها القاضي عن ماهية العلاقة بيننا ، فأجابت إنها كانت صديقتي . وأجابت عن سؤال آخر إنها وعدت أن تتزوجني . سأها المدعي العام فجأة ، وكان يدرس أحد المستندات أمامه ، متى بدأت «علاقتنا» . فحدّدت له التاريخ . فأعلن المدعي العام عندها ، في نبرة لا مبالية ، أنها تعني على ما يبدو اليوم الذي تلا جنازة أمي . ثم أعقب بعد ذلك في شيء من السخرية أن ذلك كان «موضوعاً دقيقاً» ، وأنه يستطيع البحث في مشاعر سيدة فتية وأحاسيسها ، ولكن واجبه - وازداد صوته هنا حدة - يرغمه على اطراح الاعتبارات الدقيقة .

سأل ماري بعد هذا الايضاح أن تلخص له ماذا فعلنا في ذلك اليوم عندما «جامعتها» للمرة الأولى . لم تكن ماري تريد أن تتكلم أول الأمر ، غير أن المدعي العام ألحَّ عليها ، فقالت له عندئذ إننا التقينا في المسيح ، ومضينا معاً إلى السينما ، ومن بعد إلى غرفتي . فخاطب المحكمة قائلاً إنه، كنتيجة للمعلومات التي أعطتها ماري أثناء استجوابها لدى قاضي التحقيق ، فقد درس برامج دور السينما في ذلك التاريخ ، وطلب إلى ماري بعد أن استدار صوبها أن تسمي الفيلم الذي ذهبنا لمشاهدته فقالت في صوت جد مخفوض إنه فيلم من تمثيل فرنانديل . ولم تتم حديثها حتى ران الصمت في قاعة المحكمة بحيث تسمع صدى إبرة إن وقعت .

هَبَّ المدعي واقفاً وعلى وجهه علائم الجَدِّ ، وأشار إليَّ ، وقال في نبرة أقسم أن الانفعال سيطر عليها تماماً :

- يا سادتي المحلفين ، أريدكم أن تذكروا أن هذا الرجل ، غداة دفن أمه ، كان يزور المسابح ، ويبدأ علاقة مع فتاة ، ويذهب لمشاهدة فيلم هزلي . هذا كل ما أريد أن أقول .

كان ذلك السكون الشامل جاثماً على القاعة عندما جلس . وانفجرت ماري

باكية على غير انتظار . قالت إنه فهم الأمر على عكس ما أرادت ، فالأمر لم يكن على هذا الغرار حقاً ، وقد أرغمها على أن تقول خلاف ما كانت تقصد أن تقول . إنها تعرفني حق المعرفة ، وهي واثقة أنني لم أقم بأي أذى - وما شابه ذلك . واقتادها أحد الحجاب ، بإشارة من الرئيس ، إلى خارج القاعة . وتوالت الجلسة .

بدأ لي أن أحداً لم يكن يصغي إلي ماسون ، الشاهد التالي . قال إنني كنت رجلاً محترماً ، «وأكثر من ذلك مهذباً» . كما أن أحداً لم يلق أذنأ صاغياً لسالامانو عندما أنبأهم كيف كنت لطيفاً مع كلبه على الدوام ، أوحين أجاب عن سؤال حول أُمي وحولي بقوله إنه لم يكن لديّ ما أقول لأُمي وهذا ما يفسر وضعي لها في المأوى . وأضاف قائلاً :

- يجب أن تفهموا ، يجب أن تفهموا .

لكن أحداً لم يكن يبدو أنه يريد أن يفهم . وطلب إليه أن يعود إلى مكانه . جاء دور ريمون ، وهو آخر شاهد. لَوَّح لي بيده بإيماءة صغيرة وقال إنني بريء . فوبّخه الرئيس قائلاً :

- أنت هنا للدلاء بإفادتك لا وجهة نظرك في القضية . وينبغي أن تردّ على الأسئلة التي تطرح عليك .

طلب إليه أن يوضح صلته بالضحية . فانتهر ريمون الفرصة ليشرح أنه هو ، لا أنا ، كان هدف الضحية ، لأنه هو، ريمون ، قد ضرب له أخته . وسأله القاضي إن لم يكن لدى الرجل القتل سبب يدعو إلى كرهني أنا الآخر . فأخبره ريمون أن وجودي على الشاطئ في ذلك النهار كان محض مصادفة ليس غير .

سأل المدعي العام :

- كيف تفسر إذن أن الرسالة التي قادت إلى هذه المأساة كانت من عمل

السجين ؟

أجاب ريمون أن هذا أيضاً هو من قبيل المصادفة المحضة .  
فأعلن المدعي العام أنه يبدو في هذه القضية أن «الحظ» أو «المصادفة  
المحضة» تلعبان دوراً رئيسياً . وهل كان من قبيل الحظ أنني لم أتدخل حين  
صفع ريمون عشيقته ؟ وهل من قبيل «الحظ» أنني شهدت في صالح ريمون في  
مخفر الشرطة ، وأن تصرّحتني ، في تلك المناسبة ، كانت في صالحه ؟ وفي  
النهاية سأل ريمون عن وسائل عيشه .

عندما أجاب ريمون إنه رجل ماخور ، التفت المدعي العام إلى المحلفين وقال  
إنه واضح أن الشاهد يعيش على حساب أرباح النساء اللاأخلاقيات ، وأني  
أنا صديقه وشريكه . والواقع أن الجريمة برمتها قضية مأساة أخلاقية ، ويزيدها  
خطورة شخصية السجين ، شيطان متوحش لا خلاق له .  
أراد ريمون أن يحتجّ ، كما احتجّ محامي أيضاً . فقبل لها إن المدعي العام  
يجب أن يكمل حديثه .

قال المدعي العام :

- أنا على وشك أن أفعل ذلك .

واستدار إلى ريمون :

- هل كان الموقف صديقك ؟

- أكيد . كنا صديقين حميمين ، كما يقولون .

وسألني المدعي العام السؤال عينه . فحدّثت في ريمون بقسوة ، فلم يبعد  
عينيه عني . قلت :

- نعم .

فاستدار المدعي العام إلى المحلفين :

- لم يكتف الرجل المائل أمامكم في قفص الاتهام بالانغماس في أحط ألوان



الدعارة غداة دفن أمه ، ولكنه قتل رجلاً بكل هدوء أعصاب لتصفية قضية أخلاقية من أبشع ما يمكن أن يوصف . هذا هو ، يا سادتي المحلفين ، مثال هذا الموقف .

وما أن جلس حتى رفع محامي ذراعيه عالياً ، نافذ الصبر ، فشمر عن ساعديه المنتهين بكمي قميص منشئ ، وسأل :  
- هل يحاكم موكلي بتهمة دفن أمه أو بتهمة قتل رجل ؟  
ورنت أصوات ضحك في القاعة .

هبّ المدعي العام على قدميه ، وتسربل بثوبه ، وقال إنه مشدوه من سذاجة صديقه في الاخفاق في رؤية أن ثمة علاقة أساسية بين حدي هذه القضية . إنها يرتبطان نفسانياً ، إن أجيز له أن يقول ذلك . وختم حديثه بقوله ، وهو يتحدث في عنف :

- وباختصار ، فأنا أتهم هذا الموقف أنه تصرف يوم دفن أمه بأسلوب يدل على أنه مجرم في قلبه .

وبدا أن هذه الكلمات خلفت أثراً كبيراً على المحلفين والحضور . هز محامي كتفيه ومسح العرق عن جبهته . مما لا ريبة فيه أنه كان مزعوجاً . وشعرت أن الأمور لا تسير في صالحني على الإطلاق .

رفعت الجلسة بعد ذلك . ونقلت من قاعة المحاكمة إلى سيارة السجن ، وأنا أشعر للحظات قصار برائحة الأمسية الصيفية المألوفة في الخارج . ولما جلست في عتمة زنزانتني استعدت ، في ذهني المتعب ، جميع الأصوات المميزة للمدينة التي كنت أحب ، وساعة معينة من النهار كانت تلذني بصورة خاصة . صراخ باعة الصحف من الأولاد في الهواء المسترخي ، وآخر نداءات العصفير في الحدائق العامة ، وصراخ بائعي الساندويش ، وقعقة عربات الترام في منعطفات المدينة العليا ، وخشخشة السماء الخفيفة فيما العتمة تساقط على المرفأ - هذه

الأصوات جميعاً جعلت عودتي إلى السجن أشبه برحلة رجل أعمى على طريق  
حفظ كل خطوة فيها عن ظهر قلبه .

بلى ، تلك كانت ساعة العشيّة عندما - لكم كان يخيّل إليّ أنها غارقة في  
البعد ! - كنت أشعر دائماً أنني مغتبط بالحياة ثم إن ما كان ينتظرني هو ليل  
مريح ، ونوم لا أحلام فيه . هذه هي الساعة ذاتها ، لكنها على شيء من  
الاختلاف . كنت أعود إلى زنزاني ، وكان ما ينتظرني هو ليل تتتابه هواجس  
النهار المقبل . وهكذا تعلمت أن الدروب المألوفة المرسومة في عشيات الصيف  
يمكن أن تقود إلى السجن مثلما تقود إلى نوم بريء لا همّ فيه .

يشير الاهتمام دائماً ، حتى في زلزلة سجين ، أن يسمع المرء من يتحدث عنه .  
وطبيعي أنهم تحدثوا عني كثيراً ، وخاصة في مرافعة محامي والمدعي العام . تحدثوا  
عني شخصياً أكثر مما تحدثوا عن جرميتي .

لم يكن ثمة اختلاف كبير بين المرافعتين . كان المحامي يرفع ذراعيه إلى  
السماء أثناء دفاعه ويعلن أنني مذنب ، ولكنه يلتمس لي الأعذار . وكان المدعي  
العام يأتي الحركات ذاتها ويوافق على أنني مذنب ، ولكنه يرفض قبول  
الأعذار .

غير أن هنالك شيئاً كان يزعجني في هذه المحاكمة . ورغم ما كان يشغلني  
من هذه الأقوال التي يصرفونها ، فقد كنت أحاول أن أقول كلمة شخصياً .  
وكان محامي يطلب إليّ ألا أفعل ، ويقول :  
- أنت لن تصلح حال قضيتك بحديثك .

يبدو أن هذه القضية كانت تستبعدني من إجراءاتها . فما كان ينبغي أن  
أقول شيئاً . وكان مضيري يتقرر من دون رأيي .

وراح يخطر لي بين فينة وأخرى أن أقاطع الجميع وأقول :  
- لكن ، لعنة الله على كل شيء . من هو المتهم في هذه المحاكمة ؟ أريد أن  
أعرف ذلك ! إنه لهم جداً أن يكون المرء متهماً . وإن لديّ شيئاً على جانب

كبير من الأهمية أريد أن أقوله لكم .  
ولكنني ، بعد أن أفكر قليلاً ، أجد أنه ليس لديّ ما أقول . ويجب أن  
أعترف ، على أية حال ، أن إصغاء المبرء إلى ما يقول الناس عنه يفقد أهميته  
سريعاً . فمرافعة المدعي العام بدأت تضجرنني بشكل خاص قبل أن يصل إلى  
منتصفها . والشيء الوحيد الذي استرعى التفاتي هو مقاطع عرضية ،  
وحركاته ، وبعض كلمات معقدة - ولكن! مفصولة عن المجموع .  
وتبينت أن ما هدف إليه هو إظهار أن جريمتي كانت عن سابق عمد . وأذكر  
أنه قال مرة :

- أستطيع أن أثبت ذلك ، يا أيها السادة المحلفين ، على أكمل وجه .  
فلديكم أولاً وقائع الجريمة ، هذه الوقائع الواضحة وضوح النهار . ومن بعد  
لديكم ما أسميه الجانب المظلم من هذه القضية ، الأعمال المظلمة لذهنية  
بجومة .

شرع يلخص الوقائع ، منذ وفاة والدتي حتى آخر التفاصيل . وأكد على  
قساوة قلبي ، وعلى جهلي بعمر أمي ، وعلى ذهابي إلى المسبح حيث التقيت  
ماري ، وعلى ذهابنا إلى السينما لمشاهدة فيلم من تمثيل فرنانديل ، ثم عودتي  
برفقة ماري إلى غرفتي . لم أستطع فهم كلماته أول الأمر ، فيما هو يردد  
«عشيقة الموقوف» . وقد كانت بالنسبة إليّ «ماري» فقط . ثم وصل إلى موضوع  
ريمون . فوجدت أن طريقته في النظر إلى الأحداث لم يكن ينقصها الوضوح .  
إن ما كان يقوله معقول . لقد كتبت الرسالة بالاتفاق مع ريمون لأجذب  
عشيقته إلى غرفته وأسلمها إلى المعاملة السيئة من قبل رجل «سيء السمعة  
حقاً» . وهنالك على الشاطئ أثرت شجاراً مع خصوم ريمون ، وجرح ريمون في  
هذا الخصام . فطلبت إليه أن يعطيني مسدسه ، ورجعت بنفسني وفي نيتي أن  
أستعمله . ثم أطلقت النار على العربي . وانتظرت بعد الطلقة الأولى . ثم

أطلقت أربع رصاصات أخرى «لأتأكد من أنني أنجزت العملية جيداً» ، وكان إطلاقي النار على مهلة ، وبشكل واغ ، على ضحيتي . قال :  
- هذه هي قضيتي . لقد وصفت لكم سلسلة الأحداث التي قادت هذا الرجل إلى ارتكاب جرم القتل ، وهو عالم بما تقترب يده . وأنا ألح على هذه الناحية . نحن لا نعالج هنا قضية قتل عادي في فورة فجائية يمكن أن نمنحها أسباباً مخففة . أرجو منكم أن تلاحظوا ، أيها السادة ، أن هذا الموقف رجل مثقف . ولا ريب أنكم لاحظتم كيف كان يرد على أسئلتي . إنه ذكي ، وهو يعرف قيمة الكلمات . وأكرز أنه يستحيل أن نقول إنه ، وهو يرتكب فعلته ، لم يكن عارفاً ماذا يفعل .

واسترعى انتباهي أنه يصرُّ على «ذكائي» . وأدهشني كيف يمكن لمزايا رجل عادي أن تغدو أعباء ساحقة ضد مذنب . وفيما أنا أفكر في ذلك غاب عني ما كان يقول بعد ذلك حتى سمعته يوضح في كلمات ساخطة :

- هل تراه عبّر عن شيء من الأسف عن جريمته البشعة ؟ إنه لم يقل كلمة واحدة ، أيها السادة . ولا كلمة واحدة خلال هذا التحقيق كله .

والتفت إلى قفص الاتهام ، ودلّ عليّ ، وتابع حديثه . ولم أستطع أن أفهم لماذا يضرب على هذا الوتر المنفرد كثيراً . لم أكن أنكر طبعاً أنه كان على حق . فأننا لا أشعر بشيء من الأسف على ما فعلت .

كان بوّدي أن يتاح لي أن أشرح له ، في أسلوب ودي ، أسلوب حبي ، أنني لم أكن أستطيع أن أسف على أي شيء كان في حياتي . كنت على الدوام مأخوذاً بما هو أنني ، أو بما يأتي به المستقبل ، فلا أفكر في الماضي . وطبيعي أنني لم أكن أستطيع ، في هذا الوضع الذي زجوا بي فيه ، أن أتحدث إلى أي كان على هذا الفرار . لم يكن لي الحق أن أبدو محباً ، ولا أن تكون لي أية إرادة طيبة . فحاولت أن أصغي إلى ما يقال بعد ، فيما المدعي العام يبحث الآن فيما

بسميه «نفسى» .  
قال إنه درسها عن كذب - فوجد أنها «فارغة تماماً» ، يا أيها السادة  
المحلفين» . وقال إنه لم تكن لي روح في الحقيقة ، ولم يكن لدي ما هو  
إنساني ، وإن أي مبدأ من المبادئ التي يملكها البشر كان ممتنعاً عليّ .  
وأضاف يقول :

- لا شك أننا لن نوبخه من أجل ذلك . فنحن لا نستطيع أن نلوم رجلاً  
لفقدانه ما يفتقر إليه . ولكن القضية بالنسبة إلى محكمة جزائية هي أن  
الفضيلة السلبية للتسامح يجب أن تخلي مكانها لفضيلة أصعب ، أعني العدالة ،  
وخاصة عندما يكون هذا النقص مثل النقص الذي نكتشفه في مثل هذا  
الرجل المائل أمامكم ، وهو تعريض المجتمع للخطر .

وانتهى إلى بحث موضوع تصرفاتي حيال أمي ، فكرر ما سبق أن قال  
خلال الاستجواب . ولكنه أسهب كثيراً حول موضوع جريمتي ، أسهب حتى  
فقدت معاني كلماته ، ولم أعد أشعر سوى حرارة القاعة المتفاقمة .  
وجاءت لحظة توقف المدعي العام فيها ، وصمت فترة ، ثم استرسل في  
صوت خفيض مرتعش :

- هذه المحكمة ، أيها السادة ، ستنتظر في الغداة موضوع جريمة من أبشع  
الجرائم ، وهي جريمة ابن قتل والده .

لم تكن هذه الجريمة مما يمكن تصوّره بالنسبة إليه . وكان يجروّ على أن يؤمل  
أن تأخذ العدالة مجراها حقاً . كما كان يجروّ على القول إن الفظاعة التي  
أوحتها تلك الجريمة تنهزم أمام الفظاعة التي يشعر بها حيال قسوة فؤادي .

- ان الرجل الذي يقتل أمه معنوياً لا يختلف عن الرجل الذي يرفع يداً  
قاتلة على أبيه الذي وهب له الحياة . الجريمة الأولى تقود من دون ريب إلى  
الثانية . وأول هذين المجرمين ، هذا الرجل الذي يقف في قفص الاتهام ، قد

وضع سابقةً ، إذا سمحت لي أن أقول ذلك ، ورخص بارتكاب الجريمة الثانية .  
بلى ، أيها السادة ، إنني واثق (ورفع صوته هنا) أنكم لن تجدوا أنني أبالغ في  
هذه القضية ضد هذا الرجل عندما أقول إنه مجرم أيضاً بجريمة القتل التي  
ستنظر غداً في هذه المحكمة . وإنني أطلب منكم أن تنزلوا به القصاص  
العادل .

وتوقف المدعي العام مرة أخرى ليمسح العرق عن وجهه . ثم شرح أن  
واجبه مؤلم ، ولكنه سيقوم به في حزم .

- أكرر أن هذا الرجل لا محلّ له في مجتمع يحتقر مبادئه الأساسية الاحترار  
كلّه . ولما كان قاسي الفؤاد فهو لا يستأهل الرحمة . أسألكم أن تحكموا عليه  
بأقصى عقاب استتّه القانون ، وأنا أطلب ذلك وقلبي مطمئن . خلال ممارستي  
المهنية الطويلة ، هذه الممارسة التي اضطررت خلالها إلى طلب إنزال أقصى  
العقوبة بالمتهمين ، لم أشعر قط كما أشعر اليوم بأن هذا الواجب الشاق مكافئاً  
ومتوازن ومضاء بوعي أمر قوي مقدس ، وبفضاعة أحسها إزاء وجه إنسان لا  
أقرأ على صفحته أية بارقة من شعور بشري .

عندما جلس المدعي العام أطبق صمتي قاتل . كنت منهكاً بالحرارة  
والدهشة مما كنت أسمع . وسعل الرئيس سعلة قصيرة ، وسألني في صوت  
خفيض إن كان لديّ ما أريد أن أقول . نهضت ، وشعرت أنني أريد أن أقول  
شيئاً ، فقلت أول شيء خطر في بالي : أنني لم أكن أنوي قتل العربي .  
فأجاب الرئيس أن هذا الايضاح سيؤخذ بعين الاعتبار من قبل المحكمة . وأنه  
يجب أن يعرف في تلك الأثناء ، وقبل أن يبدأ وكيلني إلقاء دفاعه ، ما هي  
الدوافع التي جعلتني ارتكب جريمتي . فهو لم يفهم تماماً أسس دفاعي .

حاولت أن أشرح كيف أن ذلك كان من الشمس ، ولكنني تحدثت في  
عجلة ، وانهالت كلماتي وراء بعضها بعضاً فاختلفت معانيها . وأحسست أنها

كانت تبعث على السخرية ، فقد سمعت الجمهور يضحك .  
هز محامي كتفيه . طُلبَ إليه أن يلقي دفاعه بدوره . ولكنه أشار إلى أن  
الوقت تأخر ، وطلب إمهاله إلى ما بعد ظهيرة اليوم التالي . فوافق الرئيس على  
ذلك .

عندما وصلت اليوم التالي كانت المروحتان الكهربائيتان لا تبرحان تحركان  
هواء القاعة الثقيل ، والقضاة يروّحون وجوههم بمراوحهم الصغيرة بإيقاع واحد  
منتظم . وخيل إليّ أن مرافعة الدفاع لن تنتهي . أصغيت إليه أول الأمر ،  
فسمعته يقول : «صحيح أنني قتلت رجلاً» . وتابع الحديث على هذا الفرار ،  
فقال : «أنا» كلما تحدث عني . وبدأ الأمر غريباً بحيث انحنيت على أحد  
الشرطين عن يميني وسألته أن يوضح الأمر لي . فأمرني أن أخرس . ثم همس  
بعد لحظة :

- جميع المحامين يفعلون ذلك .

أما أنا ففكرت أن في ذلك أيضاً أبعاداً في هذه القضية وإحالي إلى صفر ،  
وحلول المحامي محلي على شكل ما . أزعجني ذلك . فقد شعرت أن الكلمات  
تنزلق من قاعة المحاكمة وأجرائاتها المملة .

أدهشني محامي ، على أية حال ، بحيث بدا لي مضحكاً . أسرع في  
مرافعته ، ثم بدأ ، هو نفسه ، يتحدث عن «روحي» . ولكنه بدا لي أقلّ موهبة  
من المدعي العام بما لا يقاس . قال :

- أنا الآخر درست روح هذا الرجل عن كثب . ولكنني ، خلافاً لرأي  
صديقي المدعي العام ، وجدت شيئاً فيها . وأستطيع أن أقول إنني قرأت ما في  
ذهن موكلي كما أقرأ في كتاب مفتوح .

إن ما قرأه هناك هو أنني كنت رجلاً رائعاً ، شريفاً ، وعاملاً منتظماً يبذل  
قصاراه في خدمة مخدمه ، وأني كنت معروفاً من قبل الجميع ، وأتعاطف مع



الآخرين ومشاكلهم . وكنت في نظره ولداً مطيعاً ، ساعد أمه على قدر استطاعته . وقد انتهيت بعد بحث مطول إلى قرار هو أن ادخال السيدة العجوز إلى المأوى سيؤمن لها الراحة التي لا يمكن أن تؤمنها وسائل المادية . وأضاف : - يدهشني ، أيها السادة ، أن تكون أثرت مثل تلك الضجة الصاخبة من قبل صديقي المثقف حول ذلك المأوى . فإن وجب اعطاء برهان على نفع هذه المؤسسات ، فيجب أن نذكر فقط أن هذه المؤسسات أنشأتها الدولة وجعلت تمدها بالمال .

لحظت أنه لم يشر إلى الدفن ، وأحسست أن هذا كان نقصاً أساسياً في مرافعته . ولكنه بسبب من هذه العبارات الطويلة وتلك النهارات جميعها والساعات التي نوقش فيها موضوع «روحي» وما تبع ذلك ، وجدت أن فكري أصيب بالاغماء . كل شيء ينحلّ في ضباب مائي رمادي اللون . في ذاكرتي شيء واحد فقط . عند انتهاء المرافعات ، ووكيلي يتابع حديثه ، سمعت بوق بائع مثلجات من الشارع . صوت قصير حاد يترسل تدفق الكلمات . وتلاحقت في ذهني اندفاعة من الذكريات - ذكريات حياة لا تخصني ولكنها زودتني بمسرات متواضعة راسخة : روائح صيف دافئة ، وشوارع المحبوبة ، وسماء المساء ، وثياب ماري وضحكتها . إن عبث ما يجري الآن هنا يلوح وكأنه يأخذ بخناقتي ، ورأيتني أستعجل فكرة واحدة : أن انتهي ، وأعود إلى زنزانتني ، وأنام ... أنام .

وسمعت ، فيما يشبه الضباب ، محامي ينهي مرافعته : - أيها السادة القضاة ، أكيد أنكم لن ترسلوا إلى الموت شاباً شريفاً عاملاً لأنه فقد سيطرته على نفسه في لحظة شرود ؟ أفلم يعاقب بما فيه الكفاية بهذا الندم الأبدي الذي يطوق عنقه ؟ إنني أنتظر قراركم على ثقة ، القرار الوحيد المعقول - القتل مع الأسباب المخففة التقديرية .

نهضت المحكمة وجلس المحامي وقد أنهكه الحديث . وجاء بعض زملائه وصافحوه . وسمعت أحدهم يخاطبه بقوله :  
- لقد تلوت مرافعة رائعة ، يا صاح .  
وطلب أحد المحامين شهادتي قائلاً :  
- رائعة ، أليس كذلك ؟  
فأومأت بالايجاب . لكنني لم أكن صادقاً . كنت متعباً جداً كي أحكم ما إذا كانت «رائعة» أم لا .

كان النهار يتلاشى ، والحرارة تضعف . وعرفت أن برودة المساء انتشرت من ضجيج بعض أصوات مُبهمة دُفَّت إلى سمعي من الشارع . كنا جميعاً ننتظر جلوساً . وما كنا ننتظره لم يكن يعني أحداً سواي . أدت بصري في قاعة المحكمة . كان كل شيء فيها مثلما رأيته أول يوم . التقيت عيني الصحافي ذي البزة الرمادية والمرأة الغربية . فذكرني ذلك أنني لم أحاول النظر في عيني ماري مرة واحدة خلال فترة المحاكمة بأسرها . لم يكن ذلك لأتني نسيتها ، إنما لأتني شُغلت عنها بأمور أخرى . وهذا أنا أراها الآن جالسة بين سيليبست وريمون .

لُوحت لي بيدها بحركة صغيرة ، كما لو أنها تقول : «وأخيراً !» . كانت تبسم ، وأستطيع أن أقول إنها كانت قلقة . ولكنني أحسست كما لو أن قلبي تحجّر ، فلم أستطع أن أرد على ابتسامتها .

رجع المحلفون إلى مقاعدهم . وقرأ أحدهم على القضاة ، في سرعة كبيرة ، سلسلة من الأسئلة . التقطت منها هنا وهناك : «مذنب بجريمة قتل عمد ... سبق تصوّر ... ظروف مخففة» . وخرج القضاة ، وأخذت إلى الغرفة الصغيرة التي سبق أن انتظرت فيها . وجاء محاميّ لرؤيتي . كان يتكلم بسرعة ويحدثني في ثقة ولطف لم أعهد لها منه قبلاً . وأكد لي أن الأمور ستسير على خير ما يرام

وسينتهي الموضوع بعدة سنوات من السجن أو الابعاد . وسألته عما إذا كان هناك مجال لنقض الحكم . فأجاب بالنفي . كانت خطته ألا يستخرج نتائج ختامية كيلا يزعج المحكمة . ولا يمكن الطعن في حكم إلا بناء على أسباب قانونية . فهمت وجهة نظره ، فصمتُ . قنعت بما قال كيلا يكون ثمة لا نهاية للمحاكمات .

قال المحامي :

- وعلى أية حال ففي مقدورك استئناف الحكم بشكل عادي . ولكنني واثق أن القرار سيكون معقولاً .

انتظرنا فترة من الزمن ، حوالي ثلاثة أرباع الساعة ، كما أعتقد . ثم دق الجرس . فتركني محامي ، قائلاً :

- سيقراً رئيس المحكمة الأجوبة . وسيستدعونك بعد ذلك لسماع نص الحكم .

اصطفقت بعض الأبواب . وسمعت بعض الأشخاص يتراكمون على سلم ، ولكنني لم أعرف إن كان قريباً أم بعيداً . ثم سمعت صوتاً ينددن في قاعة المحكمة .

عندما دق الجرس من جديد رجعت إلى قفص الاتهام ، وخيم صمت القاعة حوالي ، وجاء مع الصمت إحساس غريب عندما شاهدت ، للمرة الأولى ، ذلك الصحافي الشاب يحول بصره عني . ولم أنظر في اتجاه ماري . لم ينح لي الوقت لذلك لأن الرئيس أعلن بعد كلمات معقدة أنه «باسم الشعب الفرنسي» سيقطع رأسي في ساحة عامة .

خيّل إليّ عندئذ أنني أستطيع أن أترجم تلك النظرة التي ارتسمت على وجوه الحضور . إنها نظرة شفقة محترمة . وقد عاملني رجال الشرطة في مزبد من اللطف . ووضع المحامي يده على معصمي . ولم أعد أفكر في شيء على

الاطلاق . وسمعت صوت الرئيس يسألني إذا كان لديّ ما أضيفه . فكرت قليلاً ، وأجبت :

- كلا .

واقترادني رجال الشرطة .

رفضت للمرة الثالثة رؤية كاهن السجن . فليس لديّ ما أقول له ، وليست لديّ رغبة في الكلام - وسوف أراه عن قريب ، على أية حال . الأمر الوحيد الذي يشغلني الآن هو قضية الإفلات من تلك الآلة ، وأن أعرف ما إذا كان ثمة مخرج من هذه الورطة .

نقلوني إلى زنزانة أخرى . في هذه الزنزانة ، عندما أستلقي على ظهري ، أستطيع رؤية السماء ، ولا أرى سواها . كنت أقضي أوقاتي أراقب التبدل البطيء في ألوان السماء فيما النهار ينقلب إلى ليل . وكنت أضع يديّ خلف رأسي ، وأحدّق ، وأنتظر .

تملكتني فكرة ذلك المهرب . فرحت أتساءل ما إذا كان ثمة أمثلة لمحكومين بالإعدام استطاعوا الإفلات من آلة العدالة التي لا تخطيء في آخر لحظة ، فحطموا صفوف الشرطة ، واختفوا قبل أن تهبط آلة التنفيذ على رقابهم . كنت ألوم نفسي بين حين وحين أنني لم أعر قصص الإعدام الاهتمام الكافي . يجب على المرء دائماً أن يهتم بمثل هذه المسائل . فهو لا يعلم ما يمكن أن يحدث . صحيح أنني قرأت كسائر الناس أخبار الإعدامات في الصحف . ولا شك أن ثمة مؤلفات خاصة تبحث في هذه الموضوعات ، ولكنني لم أبال مرة بقراءتها . لو فعلت ذلك لوجدت قصصاً تبحث عن الفرار . أكيد أنني كنت قرأت فيها

أن العجلات توقفت في إحدى هذه الحالات ، وأن الحظ لعب ، مرة واحدة على الأقل ، دوره فيها . مرة واحدة فقط ! وأحسب أن بارقة واحدة من هذه الأمور كان يمكن أن ترضيني . وكانت عواطفي تقوم بالباقي . كانت الصحف تتحدث غالباً عن «دين مستحق للمجتمع» - دين ينبغي على المذنب ، بالنسبة إليهم ، أن يسدده كاملاً . لكن مثل الحديث لا يمكن أن يشير المخيلة . كلا ، ما كان يمكن أن يفيدني هو إمكانية فراري وإحباط مسعاهم في إراقة الدماء ، إمكانية هروب مجنون إلى الحرية يمكن أن يهب لي لحظة من أمل ، كآخر رمية حظ يقوم المقامر بها . طبعي أن ذلك «الأمل» كله يمكن أن ينتهي في زاوية شارع ، أو برصاصة في ظهري . لكننا إذا اعتبرنا كل شيء ، فقد كان هذا البذخ ممنوعاً عليّ . وقعت في المصيدة بشكل لا يمكن الإفلات منه .

لم أكن أستطيع ، رغم جهودي ، أن أقبل هذا اليقين الوحشي . ذلك أنه كان في نهاية المطاف تنافر بين الحكم الذي بُني عليه وتسلسل الحوادث الراسخ بدءاً من اللحظة التي أعطي هذا الحكم فيها . ان كون الحكم قد تلي في الساعة الثامنة بعد الظهر بدلاً من الساعة الخامسة ، وكون أنه كان يمكن أن يكون حكماً مختلفاً عن هذا ، وكونه اتخذ من قبل رجال يغيرون ملابسهم الداخلية ، وكونه عزى إلى هوية غريبة مثل «الشعب الفرنسي» - ولم لم يُعزَ إلى الشعب الصيني أو الألماني مثلاً ؟ - هذه الوقائع كلها بدت وكأنها تجرد قرار المحكمة من وقاره وخطورته . ومع ذلك كنت مضطراً ، منذ النطق به ، إلى الاعتراف بأن تأثيره صار مقنعاً ، ولموساً مثلاً مثل هذا الجدار الذي أضطجع عنده وأسند ظهري إليه .

تذكرت ، عندما مرّت هذه الأفكار في رأسي ، قصة أمي التي اعتادت أن ترويها لي عن أبي . لم أكن قد عرفته قط . لربما كانت الأشياء التي عرفتھا عنه فعلاً هي تلك التي روتها أمي . إحدى هذه الأشياء أنه ذهب مرة لحضور

تنفيذ حكم بالإعدام . وكان مجرد التفكير في تلك العملية يجعله يقيء . ولكنه حضرها ، وما أن رجع إلى البيت حتى مرض مرضاً شديداً . وجدت تصرف والدي في تلك الفترة يثير الاشمئزاز ، أما الآن فأنا أدرك ذلك . إنه أمر طبيعي إلى حد بعيد . كيف لم يسبق لي أن رأيت أنه ليس ثمة ما هو أهم من تنفيذ حكم بالإعدام ، وقد كان ، من وجهة نظري الخاصة ، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يثير انتباه أي رجل كان ؟ وقررت أنه إذا قُدر لي أن أخرج من هذا السجن فسوف أحضر كل تنفيذ حكم بالإعدام يتاح لي أن أدري به . لا ريبة أنني كنت مُحطناً في التفكير بهذه الامكانية ، لأنني عندما أتصور نفسي وقد استرددت حرיתי ، واقفاً خلف صف مضاعف من رجال الشرطة ، فإن مجرد التفكير في كوني المشاهد الذي يأتي لمجرد التمتع بالرؤية ، والعودة إلى البيت للإقياء بعد ذلك ، يغمر فكري ببهجة وحشية سخيفة . كان من الحماقة أن أسمح لمخيلتي بالاستسلام لهذه الأمور . فأنا أحسُّ في اللحظة التالية بقشعريرة تملكني ، فأضطر إلى الانكماش تحت غطائي . وكانت أسناني تصطك فلا أعرف كيف أمنعها عن ذلك .

ومع هذا فإن المرء لا يستطيع أن يكون معقولاً دائماً . كانت فكرة سخيفة أخرى تجعلني أرسم قوانين جديدة ، وأعدل العقوبات . وكان تفكيري ينحو إلى أن ما نحن في حاجة إليه هو إعطاء المحكوم عليه فرصة ، ولو كانت تافهة ، ولنقل واحدة من ألف . كان يمكن إيجاد دواء ، أو خليط من الادوية ، يمكن أن يقتل المريض (كنت أفكر في المحكوم عليه باعتباره مريضاً) تسعمئة وتسعين مرة من ألف . وكان هو سيدرك ذلك ، ويدرك أنه الشرط الرئيسي . ذلك أنني كنت ألاحظ ، في هدوء ، أنني بعد تفكير طويل أصل إلى نتيجة تقول إن ما كان معيياً في قضية المقصلة هو أن المحكوم لم يكن يجد فرصة على الإطلاق ، ولا فرصة واحدة . وكانت تلك نتيجة محتومة . فإذا لم تقم السكين بعملها

لسبب من الأسباب فهم يعيدون التجربة من جديد . وهكذا ينجم عن ذلك -  
ويتم ذلك ضد إرادة الانسان الفطرية من دون ريب - أن المحكوم عليه يتمنى  
أن تسير الآلة سيراً حسناً ! أقول إن هذا هو الجانب الشاذ في العملية . ووجهة  
نظري صحيحة حقاً . ومن جهة أخرى ، فقد كنت مضطراً إلى الاعتراف بأن  
سر التنظيم الجيد يكمن هنا . وبالأجمال : فإن الشخص المحكوم عليه يضطر  
لمد يد المعونة معنوياً ، فقد كان من مصلحته أن يتم كل شيء دون خطأ على  
الاطلاق .

وكان ثمة شيء آخر ينبغي عليّ حتى الآن أن أدركه ، ألا وهو أن أفكاري  
عن ذلك الموضوع كانت خاطئة . كنت أتصور دائماً ، لسبب ما ، أن المحكوم  
عليه يجب أن يصعد سلماً ويرتقي صقالة للوصول إلى المقصلة . وأحسب أن هذا  
كان بسبب من ثورة عام ١٧٨٩ ، أعني ما علموني في المدرسة ، والصور التي  
تفرجتُ عليها . ثم تذكرت ذات صباح صورة نشرت في الصحف تمثل عملية  
إعدام مجرم مشهور . كانت الآلة موضوعة على الأرض ، على أبسط الأشكال ،  
ودون تعقيدات . وكانت أضيق جداً مما كنت أظن . وصعقني أن تلك الصورة  
الغريبة هربت من ذاكرتي حتى الآن . كما صعقني في ذلك الوقت منظر المقصلة  
النظيف . جوانبها ونهاياتها اللماعة تذكر المرء دائماً بأدوات المخابر النظيفة .  
فينتصور المرء دائماً أفكاراً مبالغاً فيها عن أشياء لا يعرفها . ويجب أن أعترف  
الآن أنها بدت لي بسيطة جداً . فالآلة على مستوى الرجل تماماً ، وهو يخطو  
صوبها كمن يخطو صوب رجل يعرفه . وكان ذلك مزعجاً حقاً . فإن صعود  
صقالة ، وترك العالم كله تحت إذا أجيز أن أقول ذلك ، يعطي مخيلة الإنسان  
شيئاً تتمسك به . أما الآلة هنا فكانت تسحق كل شيء . إنها تقتلك على  
الفور ، في شيء من الخجل وكثير من الدقة .  
وكان ثمة أمران آخران أفكر فيهما على الدوام : الفجر ، والاستئناف . بذلت



جهدي ألا أفكر في هذه الأمور . فاضطجعت ونظرت إلى السماء ، وأرغمت نفسي على دراستها . وحين بدأ الجو يحضرُ عرفت أن الليل في طريقه إلي . كنت أبذل جهداً إضافياً لأحرف بحرى أفكارى بالاصغاء إلى ضربات قلبي . لم أستطع أن أتصور أن هذا الخفقان الضعيف الذي كان يرافقني منذ مدة طويلة سيتوقف . لم تكن مخيلتي بعيدة المدى على الإطلاق في يوم من الأيام . ومع ذلك حاولت أن أتصور لحظة يكف فيها خفقان قلبي عن ترديد صدهاء في رأسي . لكن عبثاً . كان الفجر والاستئناف لا يبرحان أمامي . وانتهى بي الأمر أن أؤمن أن من السخف أن ترغب أفكار المرء على الخروج عن سيرها الطبيعي .

انهم يجيئون في طلب المحكوم عليه عند الفجر دائماً . كنت أعرف هذا تماماً . وهكذا رحت أقضي ليالي في انتظار ذلك الفجر . لم أكن أحب قط أن أؤخذ على حين غفلة . حين يقع شيء لي ، فأنا أريد أن أكون مستعداً لاستقباله . ولذلك اعتدت أن أنام في النهار وأراقب الليل بطوله منتظراً أولى خطوط الفجر على قبة السماء السوداء . وكانت أسوأ فترة في الليل هي تلك الساعة الغامضة التي أعرف أنهم يأتون فيها عادة . كنت أنتظر بعد أن ينتصف الليل ، مرهفاً سمعي في انتباه كلي . أبداً لم تلتقط أذني مثل هذا القدر العديد من الأصوات الطفيفة . ومع ذلك أقول إنني كنت محظوظاً في شيء واحد ، ألا وهو أنني لم أسمع خلال هذه الفترات كلها صدى خطوات . كانت أمي تقول غالباً إن المرء ، مهما بلغ شقاؤه ، فثمة شيء يجب أن يقدم الشكر له . وكلما أطلّ صباح جديد ، واستضاءت السماء وراح النور يغمر زنزانتني ، كنت أقرأها على رأيا . ذلك أنه كان في مقدوري أن أسمع صدى خطوات ، فأشعر أن قلبي سينفجر . ورغم أن أقل صدى كان يطير بي إلى الباب ، فألصق أذني على الخشب البارد الخشن ، وأصغي في انتباه أسمع معه صدى أنفاسي المتلاحقة الخشنة مثل

حشرة الكلب - فقد كان ذلك ينتهي سريعاً . ولم ينفجر قلبي ، وكنت أعرف أنني ربحت مهلة أربع وعشرين ساعة أخرى .

كنت أقضي النهار بطوله مفكراً في استثنائي . وقد أفدت كثيراً من هذه الفكرة ، فأحسب حساباتي بشكل أحصل منه على أفضل مردود . وهكذا كنت أبدأ دائماً من أسوأ الحلول : أن يردّ استثنائي . وهذا يعني طبعاً أنني سأموت . وكان هذا يبدو أسرع الحلول . وكنت أذكر نفسي قائلاً :

- ولكنه بدهي أن الحياة غير جديرة بأن تعاش . على أية حال .

كنت أرى في الحقيقة أنه لا فرق أن يموت المرء في الثلاثين من عمره أو في السبعين ، لأن رجالاً آخرين ونساء أخريات سيستمررون في الحياة في كلا الحالين ، والعالم لن يتوقف . وسواء ميت الآن أم بعد أربعين عاماً فالموت لا بد منه ، وهو آت من دون ريب . وكان هذا الصنف من التفكير يزعجني ، وفكرة هذه السنوات الطويلة من الحياة ذكرى تبعث على العذاب ! وعلى أية حال فقد كنت أنقذ نفسي من ذلك فأروح أتصور شعوري عندما يحين دوري ، ويحصرني الموت في إحدى زواياه . وعندما يتم ذلك لا يعود ثمة أهمية لموت الانسان . وبناء على ذلك - وعسير ألا نسقط من الاعتبار ماثيره هذه «البناء على ذلك» - ينبغي أن أستعد لمواجهة رفض استثنائي .

في تلك اللحظة ، وفي تلك اللحظة فقط ، كان لي الحق ، إذا صحّ التعبير ، وكنت أمنح نفسي الإذن بذلك ، أن أباشر الافتراض الثاني ، ألا وهو قبول استثنائي . عندئذ كانت المشكلة هي كيف أهدىء عنف ذلك الاندفاع الفجائي من الفرح المتدفق في جسدي ، والذي يرقق الدموع في عيني . كان من واجبي أن أهدىء أعصابي وأريح فكري . فاذا أخذنا هذا الاحتمال بعين الاعتبار فينبغي أن أنظم أفكاري كما أجعل من هذا الاحتمال ، بالنسبة إلى الاحتمال الأول ، أكثر قابلية . وعندما كنت أنجح في ذلك فأنا أربح ساعة من

هدوء البال . وكان ذلك شيئاً جديراً بالاحترام .

في مثل تلك اللحظات كنت أرفض رؤية الكاهن . كنت مستلقياً أفكر في اقتراب عشية صيفية من جراء ضوء ذهبي ينتشر عبر السماء . كنت قد رفضت طلب الاستئناف ، وأخذت أشعر بدمي يدور في انتظام وبطء ، في ضربات ثابتة . كلا ، أنا لا أريد رؤية الكاهن ... ثم عملت شيئاً لم أعمله منذ طويل زمن . بدأت أفكر في ماري . انها لم تكتب لي من مدة طويلة . وقلت في نفسي لربما تعبت من أن تكون عشيقة رجل محكوم بالاعدام . أو ربما كانت مريضة ، أو أنها ماتت . ان مثل هذه الأمور تحدث من دون ريب . فكيف أعرف ذلك ، ما دام ليس ثمة شيء يربطنا أو يذكر أحدنا بالآخر غير جسدينا البعيدين عن بعضهما الآن ؟ وإذا فرضنا أنها ماتت فإن ذكرها لا تعني عندي شيئاً . فأنا لا أبالي بفتاة ميتة . وبدأت لي هذه الفكرة طبيعية جداً ، مثلما صوّر لي أن الناس سينسونني سريعاً بعد موتي . لم أستطع أن أقول إن ذلك كان صعباً عليّ ، فليس ثمة فكرة يعجز المرء عن التأقلم معها في فترة من الفترات .

كنت أفكر في هذه الأمور عندما دخل الكاهن عليّ ، من دون أن أنبهه إلى ذلك . لم أستطع منع نفسي عن الارتعاش حين رأيته . وأدرك هو ذلك ، فطلب إليّ ألا أخاف . قلت له إن زيارته تكون عادة في غير هذا الوقت ، وفي مناسبة غير مستحبة . فأجاب إنها زيارة ودية ، ولا علاقة لها بموضوع الاستئناف الذي لا يعرف عنه شيئاً . ثم جلس على سرير ي ، وسألني أن أجلس إلى جانبه . رفضت - لا لأنني أحقد عليه ، فهو رجل لطيف رقيق .

ظلّ هادئاً فترة من الزمن ، وقد وضع ذراعيه على ركبتيه ، وثبّت عينيه على يديه . كانت يده رقيقتين قويتين ، فذكرتاني بحيوانين صغيرين رشيقين . ثم فركهما في لطف . ظلّ جالساً هناك فترة طويلة بحيث كدت أنسى وجوده . رفع رأسه فجأة ، وتطلع في عينيّ . سأل :

- لماذا كنت ترفض زيارتي ؟  
فشرحت له أنني لم أكن أوّمن بالله .  
- هل أنت واثق من ذلك ؟

فقلت إنني لا أرى مبرراً لإرهاق ذهني في مثل هذا الموضوع . إن كنت أوّمن  
أولا أوّمن بالنسبة إليّ موضوع تافه

استند إلى الجدار وبسط يديه على خذيته . قال ، كمن لا يحادثني ، إنه  
غالباً ما كان يلحظ أن بعض الناس يتخيلون أنهم على ثقة مطلقة من أمر من  
الأمر ، في حين لا يكونون كذلك في الواقع . ولما لم أعطه جواباً نظر إليّ مرة  
أخرى ، واستفسر :

- ألا توافقني على ذلك ؟

قلت إن هذا ممكن . ولكنني ، رغم أنني قد لا أكون واثقاً مما يلفت انتباهي  
حقاً ، واثق مما لا يلفت انتباهي على الإطلاق . والموضوع الذي يتحدث عنه  
لا يلفت انتباهي على الإطلاق .

شرد بصره ، وسألني دون أن يبدل جلسته إن لم أكن أقول ذلك بسبب من  
شعوري باليأس . فأوضحت أنني لا أشعر باليأس ، بل بالخوف - وذلك أمر  
طبيعي جداً .

قال في حزم :

في هذه الحال يستطيع الله أن يمدّ لك يد المعونة . إن جميع الرجال الذين  
رأيتهم على هذه الحال لجأوا إليه في أوقات محنتهم .

أجبت أن لهم ملء الحرية في ذلك ، إذا كانوا يشعرون بميل إليه . أما أنا فلا  
أريد ، على أية حال ، أن يساعدنني أحد ، ولست أملك وقتاً أبذله على أشياء  
لا تلفت انتباهي .

حرّك يديه في ضيق ، ثم جلس ، وسوّى ثنانيا ثوبه . وعندما انتهى من ذلك

شرع يتحدث من جديد ، وهو يخاطبني بكلمة «يا صديقي» . قال إنه لا يحادثني على هذا الفرار لأنني حكمت بالإعدام . فإن كل رجل على الأرض ، في رأيه ، محكوم عليه بالموت . هنا قاطعته مشيراً أن الأمر يختلف ، وأن ذلك ، على أية حال ، لا يمكن أن يكون تعزية .  
فأوماً قائلاً :

- ربما . ولكنك ، إن لم تمت اليوم ، فلسوف تموتن ذات يوم . وعندها يشار هذا الموضوع ذاته . فكيف تراك تواجه عندها تلك الساعة الأخيرة الرهيبة ؟ فأجبت أنني أواجهها مثلما أواجهها الآن تماماً . هنا نهض على قدميه ، ونظر باستقامة في عيني . إنها لعبة أعرفها جيداً . كنت أتسلى بها دائماً مع عمانويل وسيليست ، وكانا تسع مرات من عشر يهربان من نظرتي في كثير من الضيق . وكنت أرى أن الكاهن يعرف هذه اللعبة أيضاً ، فلم يكن نظره ليرتجف . وكان صوته راسخ النبرة عندما قال :  
- أليس لديك أمل على الإطلاق ؟ أعتقد حقاً أنك عندما تموت تموت كلية ولا يبقى منك شيء ؟  
فقلت :

- نعم .

خفض عينيه ، وجلس من جديد . قال إنه يرثي لي حقاً . إن الحياة لا يمكن أن تطاق بالنسبة إلى رجل يحمل مثل تفكيري هذا .  
بدأ الكاهن يضجرنى ، فأسندت كتفي إلى الجدار ، تحت الكوة الصغيرة ، ورميت بصري خارجاً . أدركت أنه يطرح عليّ الأسئلة من غير أن أعيره أي انتباه . ولكن صوته بدا مهتاجاً ، عجبواً ، قيتقنت أنه منفعل ، فرحت أعيره سمعي قليلاً .

قال إنه يشعر أن استثنائي سيقبل ، ولكنني أحمل وزر جريمة ينبغي أن أتخلص منها . لم تكن عدالة البشر في رأيه شيئاً ، لكن عدالة الله هي كل شيء . فأشرت إلى أن الأولى حكمت عليّ . فوافق قائلاً أجل ، ولكنها لم تحررني من إثمي . وقلت له إني لم أكن أعرف أي «إثم» ، وكل ما أعرفه هو أنني مذنب بالقتل . حسناً ، وأنا أدفع جزاء ذنبي ، وليس ثمة من يملك الحق في أن يتوقع مني أكثر من ذلك .

نهض عندئذ مرة أخرى ، فخطر لي أنه إذا أراد أن يتحرك في هذه الزنزانة الضيقة فليس أمامه سوى أحد حلين : أن يجلس أو يقف على قدميه . كنت أحتق في الأرض ، فخطا صوبي خطوة واحدة ، وتوقف كمن لا يجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك . ثم مدّ بصره من خلال قضبان الكوة إلى السماء .

قال في وقار :

- أنت مخطيء ، يا بني . ثمة أمور كثيرة يمكن أن تطلب منك . وربما

سيطلب منك .

-ماذا تقصد ؟

- قد يطلب منك أن ترى ...

-أرى ماذا ؟

نظر الكاهن حواليه في بطاء ، فصعقني الحزن في صوته حين راح يتكلم من

جديد :

- هذه الجدران الحجرية التي أعرفها جيداً ترشح بالألم البشري . ولم أكن أستطيع أن أنظر إليها دون أن أرتجف . ومع ذلك - صدقني ، فأنا أحدثك من أعماق قلبي - فأنا أعرف أن أكثركم بؤساً رأوا أحياناً وجهاً إلهياً يخرج من دكنتها . هذا هو الوجه الذي يطلب منك أن تراه .  
أثارني ذلك قليلاً . فأخبرته أنني ظلمت أحتق في هذه الجدران طوال شهور .

ولم يكن ثمة أحد ، أو شيء في هذا الوجود ، عرفته أفضل مما عرفتها . ربما كنت مرة ، منذ وقت طويل ، قد حاولت أن أبحث عن وجه أراه . ولكنه كان وجهاً له لون الذهب ولهب الشهوة - إنه وجه ماري . ولكنني لم أكن محظوظاً . فأنا لم أراه ، وقد كففت الآن عن محاولتي . وفي الحقيقة أنني لم أر شيئاً «ينبتق» من تلك الحجارة الدكناء ، على حدّ تعبيره .

حدّق الكاهن في في حزن . كنت قد استندت إلى الجدار والضوء يتدفق على جبهتي . غمغم بضع كلمات لم أفهمها . . . . ثم سألتني فجأة إذا كان في مقدوره أن يقبلني . قلت : «لا» . فاستدار ، وخطا إلى الجدار ، وأمرّ يده عليه في ببطء .

سأل في صوت خفيض :

- أتراك تحب هذه الأمور الدنيوية إلى هذا الحدّ ؟

فما أعطيت جواباً .

ظلّ طويلاً منصرفاً بنظره عني . كان وجوده ثقیل عليّ أكثر فأكثر ، وكدت أن أطلب إليه الخروج ، وأن يتركني في سلام ، عندما استدار فجأة وانفجر صارخاً في حدة :

- كلا ، كلا ! أرفض أن أصدق ذلك . أنا واثق أنك تمنيت دائماً حياة في

العالم الآخر .

قلت له إنه مصيب في رأيه . كل إنسان تمنى ذلك في وقت من الأوقات . ولكن هذا لم يكن أكثر أهمية من أن يتمنى المرء أن يكون غنياً ، أو سباحاً ماهراً ، أو أن يكون له فم جميل . كان هذا شيء من هذا القبيل . وكنت مستمراً في حديثي على هذا الفرار عندما قاطعني مستفسراً . كيف أتصور حياتي في العالم الآخر ؟

صحت في وجهه :

- حياة أستطيع فيها أن أتذكر حياتي هذه على الأرض . هذا كل ما أريد .  
وقلت له بالنبرة ذاتها إنني سئمت وجوده .

كان لديه على ما يبدو ما يضيف عن الله . فاقتربت منه ، وحاولت للمرة  
الأخيرة أن أشرح له أن الوقت المتبقي لي في الحياة قصير جداً ، وأنتي لا أريد  
إضاعته في موضوع الله .

حاول أن يغير الموضوع فسألني لماذا لم أناده مرة واحدة بكلمة «أبتاه» طالما  
أنه كاهن . فآثار ذلك أعصابي ، وأجبت أنه ليس أبي ، وأنه ، على عكس  
ذلك ، كان مع الجانب الآخر .

فقال ، وهو يضع يده على كتفي :

- كلا ، كلا ، يا بني ، إنني في جانبك ، رغم أنك لا تدرك ذلك - فقلبك  
أصم . ولكنني سأصلي من أجلك .

وإذاً ، ولا أعرف كيف ، انفجر شيء في داخلي ، وشرعت أصبح بأعلى  
حنجرتي . شتمته ، وطلبت إليه ألا يضع صلواته العفنة من أجلي . وأمسكت  
به من تلايبيه وقذفت في وجهه في موجة من الفرح والغضب كل ما كان يعمل  
في ذهني . كان يلوح عليه أنه واثق أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فإن أي يقين لديه  
لم يكن يساوي شعرة امرأة . بل هو لم يكن واثقاً من أنه يعيش طالما أنه يحيا  
كالميت . وكنت أبدو كما لو كانت يداي فارغتين . وفي الحقيقة فقد كنت واثقاً  
من نفسي ، من كل شيء ، أكثر منه هو . كنت واثقاً من حياتي الحاضرة ومن  
الموت الذي سيجيء . وكان هذا ، على ما يبدو ، كل ما لدي . ولكنني كنت  
أستطيع على الأقل إمساك هذه الحقيقة بأسناني - بقدر ما كانت تمسك بي  
هي . كنت دائماً على حق ، ولا أزال على حق ، فأنا دائماً على حق . لقد  
صرفت حياتي على نحو ما ، وكان يمكن أن أصرفها على نحو آخر لو كنت  
أريد . لقد تصرفت على هذا الغرار ، ولم أتصرف على ذلك . أنا لم أفعل



هذا ، بينا فعلت ذلك وتلك . فما معنى هذا ؟ معناه أنني انتظرت طوال الوقت مجيء هذه اللحظة ، مجيء هذا الفجر ، فجر الغداة أو أي يوم آخر ، الذي يمكن أن يبرئني من الإثم . إن أي شيء ، أي شيء على الإطلاق ، معدوم القيمة ، وكنت أعرف جيداً لماذا . وكان ، هو ، يعرف ذلك أيضاً . فمن أفق مستقبلي الأسود كان ثمة نفحة ناعمة مستمرة من ريح تهبّ في اتجاهي ، طوال مدة حياتي ، عبر أعوام لم تطلّ على الوجود بعد . وكانت تلك الريح تسوّي في طريقها جميع الأفكار التي حاول الناس إيهامي بها في أعوام ليست أكثر واقعية من الأعوام التي كنت أعيشها . ماذا كان يهمني موت الآخرين ، أو حب الأم ، أو وجود الله ، أو الأسلوب الذي يختاره الإنسان في الحياة ، والقدر الذي يعتقد أنه يختاره ، طالما أن هذا القدر ذاته هو الذي كان «يختار» لا وجودي فحسب ، بل وجود آلاف الملايين من الناس المجدودين الذين يقولون ، مثله ، إنهم إخوتي ؟ أفلم يكن ينبغي عليه تماماً ، تماماً أن يفهم ؟ أن كل إنسان يعيش هو مجدود ، وهناك صنف وحيد من الناس ، صنف المجدودين . وجميعهم محكوم عليهم بالموت في أحد هذه الأيام . وسوف يجيء دوره ، هو الآخر ، مثل الآخرين . فماذا كان يهمّ إذن . بعد أن يحكم عليه بالموت ، أن ينفذ هذا الحكم فيه لأنه لم يبك في جنازة أمه . طالما أن كل شيء يؤول إلى نتيجة واحدة في النهاية ؟ وهكذا كان مصير زوجة سالامانو ومصير كلبه . وكانت تلك الفتاة الغريبة مذنبه مثل تلك الفتاة الباريسية التي تزوجت ماسون ، ومثل ماري التي أرادت أن تتزوجني . ماذا كان يهمّ إن كان ريمون صديقي مثل سيليست الذي كان خيراً منه ؟ ماذا كان يهمّ لو أن ماري في هذه اللحظة تقبل رجلاً آخر ؟ أفلم يكن يستطيع ، باعتباره محكوماً بالموت ، أن يدرك ما عنيت بتلك الريح السوداء التي تهب من مستقبلي ؟...

كنت أصبح بهذه الكلمات وأنا أخفق . فأسرع الحراس وشرعوا يحاولون

انتزاع الكاهن من بين يديّ . وحاول أحدهم أن يضربني . فهدأهم الكاهن ،  
ورنا إلى اللحظة في صمت . كنت أرى دموعاً في مقلتيه . ثم استدار وغادر  
الغرفة .

شعرت بالهدوء بعد ذهابه . لكن هذه الإثارة هدّثني فارقيت مثاقلاً على  
أريكة نومي . ولا بدّ أني استغرقت في النوم ، إذ لم أكد أفتح عينيّ حتى رأيت  
النجوم تشعّ علي وجهي . كانت أصوات خافتة تصل إلى سمعي من  
الضاحية ، وهواء الليل الرطب ، المشبع برائحة الأرض والملح ، يروّج وجنتي .  
وتدفقت في باطني طمأنينة ليل الصيف النائم مثل مدة من موج . ومن ثم ،  
عند حدود انبلاجة الفجر ، سمعت صوت صافرة باخرة . هؤلاء أناس يقومون  
برحلة إلى عالم لم يعد يهمني على الإطلاق إلى الأبد . وللمرة الأولى منذ أشهر  
عديدة فكرت في أمي . وهذا أنا يخيل إليّ الآن أني أفهم لماذا اتخذت لها في  
نهاية حياتها «خطيباً» . ولماذا ادعت أنها تبدأ من جديد . هنالك ، أيضاً ، في  
ذلك المأوى الذي كانت فيه حيوات تنطفئ ، كان الغسق يجيء أشبه بسلوان  
كثيب . لا بدّ أن أمي ، والموت يقترب منها ، شعرت أنها أشبه بإنسان يقف عند  
حدود الحرية ، وأنه على أهبة أن يبدأ الحياة من جديد . ليس ثمة إنسان ،  
إنسان واحد في العالم ، كان يملك الحق في أن يبكي عليها . وأنا أيضاً  
أحسستني على أهبة أن أبدأ الحياة مرة أخرى . كان يبدو أن تلك الثورة  
العظيمة من الغضب غسلتني ، وأفرغتني من الأمل ، وفيما أنا أحرق في هذه  
السما السوداء المرصعة بالعلامات والنجوم ، فأنا ، للمرة الأولى ، الأولى فقط ،  
ينفتح قلبي على لامبالاة العالم العذبة . وعندما شعرت بهذا العالم شبيهاً بي  
إلى هذه الدرجة ، أخوياً حقاً ، فقد أحسست أني كنت سعيداً ، وأنني لا أبرح  
سعيداً . وكبي يكتمل كل شيء ، وكبي أشعر بأنني أقل وحدة ، فقد كان عليّ أن  
أمل أن يكون هنالك عدد كبير من الناس يوم تنفيذ الحكم فيّ ، وأن يستقبلوني

بصیحات اللعنة والبغضاء .



## صدر في سلسلة الينابيع

فاوست للشاعر الألماني غوته

ترجمة المحامي سهيل أيوب

نذير العاصفة للكاتب الروسي مكسيم غوركي

ترجمة المحامي سهيل أيوب







٦١ -

السفر ١٢ ل. د.